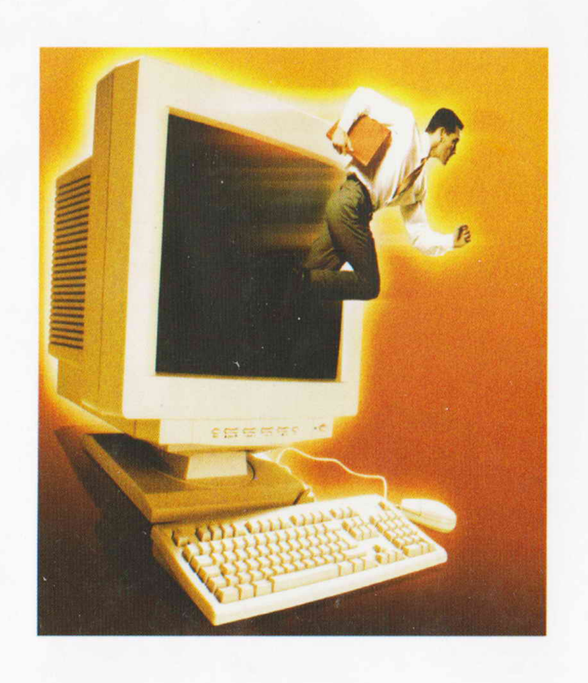


سلسلة ثقافة الحياة



# كيف تبدأ نجاحك من الحد الأدنى ؟



تأليف:
هادي المدرسي




# كيف تبدأ نجاحك من الحد الأدنى ؟

سلسلة ثقافة الحياة

2

# كيف تبدأ نجاحك من الحد الأدنى؟

تأليف:
هادي المدرسي



الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م




المكتب : حارة حريك - شارع السيد عباس الموسوي - تلفاكس : 01/545182 - 03/473919
ص . ب : 13/6080 - المستودع : بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي - هاتف : 01/541650
www.daraloloum.com E-mail:info@daraloloum.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾



# كن متفائلاً بلا إفراط،
# ومتشائماً بلا تفريط

حلاوة الحياة مشوبة بمرارتها، وخيرها مختلط بشرّها، وأفراحها متداخلة مع أحزانها، ومسرّاتها ممزوجة بمصائبها، ومُتَعها معقودة بمتاعبها.. وأمام هذا التناقض، بين الخير والشّر، والحلو والمرّ، والمليح والقبيح، ينقسم الناس إلى أصناف ثلاثة:

الصنف الأول: من لا يرى إلّا أفراح الحياة، ولا يحسب لأحزانها أي حساب.

الصنف الثاني: من لا يرى في الحياة إلّا الأحزان والمتاعب.

الصنف الثالث: من يوازن بين الأمور، ويعرف أن الأفراح والأحزان تتعاقب على حياة الإنسان. فلا الخير يدوم، ولا الشّر يبقى. فكما أن آخر الليل نهار، فإن آخر النهار ليل..

فلا الليل أبديٌ في الحياة، ولا النهار سرمديٌ فيها. ومن يظن عندما تغرب الشمس أن الظلام سيبقى مخيّماً على الكون بشكل دائم، يكون مخطئاً بمقدار ما يكون مخطئاً مَن يظن أن الشمس إذا بزغت، فإن الضياء سيبقى أبدياً.

إن حقائق الحياة تكشف أنها خليط من الحلو والمرّ، والخير والشرّ، والأحزان والأفراح، والمتع والمتاعب.

غير أنّ مَن في عينيه خلل، لا يرى إلّا حلو الحياة فقط، أو مرّها فحسب، تماماً كما أن آلة التصوير التي لا تلتقط إلّا البياض أو السواد، فيها الخلل أيضاً. فالعين

السليمة هي التي تميّز بين الألوان، فترى الأبيض أبيضاً، والأسود أسوداً، والأحمر أحمراً، وبقية الألوان كما هي على حقيقتها.

إن المؤمن يعيش بين الخوف والرجاء، فلا خوفه يغلب رجاءه، ولا رجاؤه يغلب خوفه، فلا التفاؤل يجوز أن يكون بلا حدود، ولا التشاؤم يجوز أن يكون بلا نهاية.

ومن لا يرى في الحياة إلّا الأفراح، سينقلب على نفسه في يوم من الأيام ولا يرى فيها إلّا الأحزان، وسوف ينتقل من تفاؤلٍ كاذب إلى تشاؤم حقيقي.

يقول الحديث الشريف: «إيّاك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق»[1]، فالذين لا يريدون في الحياة إلّا المتع، هم إمّا غافلون أو مغفّلون، أما الذين لا يرون إلّا الأحزان، فهم خاطئون أو مُحبَطون.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٦٢، باب ٢٢.

ومثل هؤلاء سيتحطمون نفسياً، قبل أن تحطّمهم مشاكل الحياة، وستنتهي أرواحهم قبل أن تنتهي أجسامهم.

يقول الإمام علي عليه السلام: «قَتَل القنوطُ صاحبه»[1]، والقنوط يعني اليأس، فهو يأكل روح صاحبه كما تأكل النار الحطب.

ويقول الإمام عليه السلام أيضاً: «لا تيأس من الزمان إذا مَنَع، ولا تثق به إذا أعطى»[2].

إن الحياة مثل شارع فيه حفر ومنحنيات، فمن يمشي فيه من دون أن يلتفت إلى حفره ومنحنياته، متمنياً أن لا تواجهه أية مشاكل في الطريق، إنما يخادع نفسه، وسيكتشف بعد فوات الأوان أنه كان مخطئاً ومثله في ذلك مثل من يقود سيارته بسرعةٍ جنونية من دون أن يمتلك فرامل قوية ليوقفها عندما يواجه حفرة أو حاجزاً.

---

(١) غرر الحكم، ص ٨٣، باب الخوف والرجاء.

(٢) غرر الحكم، ص ١٣٨، احذر من الدنيا.

إن المتفائل بلا حدود يظن أنه المولود البكر في هذا الكون، وأن لا أحد غيره في الحياة. أما المتشائم، فهو يظن أنه مخلوقٌ لتلقي الضربات، ومواجهة المشاكل، وهو يرى كل منحني في الطريق وكأنه حفرة لا يمكن تجاوزها.. وإن كل جسر هو عقبة لا يمكن العبور عليه. فهو يقف حيث يجب أن يمشي، وينبطح حيث يجب أن يقف، فهو كالمخدَّر بالمخدِّرات حيث تكبر عنده صغار الأمور، وتصغر كبارها..

إن المتفائل الحقيقي ينطلق في كل اتجاهات الحياة، ولكنّه لا يتجاهل المشاكل والمصاعب، ويعرف أن العقبات أمور طبيعية في طريق الناجحين فلا يُصاب باليأس إذا واجه مشكلة، ولا يُصاب بالغرور إذا أحرز نجاحاً في الحياة.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ

﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾[1].

فهنالك دائماً ثلاثة أنواع من الناس: نوع إذا نزع الله منه نعمة امتلكه اليأس.

ونوع إذا أعطاه الله نعمة أصيب بالبطر والغرور.

ونوع ثالث يعرف إن النجاح ليس تمنيات، بل هو جهد يقوم على السعي والعمل.. فالذين صبروا وعملوا الصالحات لهم مغفرة في الآخرة، وأجر كبير في الدنيا.

إن أهم صفتين يرتبط بهما النجاح والفشل هما التفاؤل والتشاؤم. فالمتفائلون بلا حدود مثل المتشائمين بلا حدود، كلاهما ينتهي إلى الفشل.. ووحدهم «المتفائلون بحذر» هم الذين يحرزون النجاح والفلاح.

ويقودنا هذا الحديث إلى السؤال عن حقيقة التفاؤل والتشاؤم، وأيهما الحالة الطبيعية المطلوبة؟

---

(١) سورة هود، الآيات: ٩ ـ ١١.

في الحقيقة إنّ التفاؤل ليس أكثر من نزعة سليمة إلى رؤية الحقائق كما هي.. فلو كانت هنالك لوحة سوداء وفي وسطها نقطة بيضاء، فإن المتفائل سوف يرى النقاط السوداء، كما يرى النقطة البيضاء بحجمها، أما المتشائم فإنه لا يرى إلّا السواد، أمّا النقطة البيضاء فلا يراها لأنها نقطة صغيرة لا تستحق الرؤية.

ولو كانت اللوحة بيضاء، وفي وسطها نقطة سوداء، فالمتفائل يرى البياض بحجمه الطبيعي كما يرى النقطة السوداء كما هي بحجمها الطبيعي، أما المتشائم فإنه يرى النقطة السوداء كبيرة، ولا يلتفت إلى كل البياض المحيط بها.

إن النـزعة إلى رؤية الحياة على حقيقتها تمثل روح التفاؤل. أما التشاؤم فهو نزعة إنحرافية في الروح، تمنع صاحبها من أن يرى من اللوحة البياض الذي يعمها ولكنه يرى النقطة السوداء في وسطها بوضوح كامل.

ولكي تعرف من هو المتفائل؟ ومن هو المتشائم؟ خذ كأساً واملأ نصفه، واترك نصفه الباقي فارغاً، ثم ارفعه أمام الناس واسأل: كل واحد منكم ماذا يرى؟

فالمتفائل سيبادرك بالقول: أرى أن نصف الكأس مليان، بينما المتشائم يقول: أرى نصفه فارغاً.

صحيح أن نصف الكأس مليان بالفعل، والنصف الآخر فارغ بالفعل أيضاً. لكن المتشائم الذي ينطلق من نزعة إنحرافية ويبحث عن نقاط الفراغ، ومشاكل الحياة، يكون عاجزاً عن رؤية نقاط الامتلاء.

لأنه لا يتفاعل مع ما يرتبط بالأفراح. إنه يبكي في ليلة زواجه على ساعة طلاقه، ويخاف في لحظة نجاحه من يوم الفشل، ويخشى في أيام أمنه من أيام خوفه.

أما المتفائلون فيرون الحقائق كما هي، فهم يعرفون تعاقب الخير والشّر في الحياة، ويؤمنون بأن الحلال

أكثر من الحرام، والطيبات أكثر من الخبائث، والصلاح أكثر من الفساد، وإن طريق النجاح مفتوح للجميع، ولكنه ليس خالياً من المشاكل..

ويروى هنا أن عيسى بن مريم ﵇ مرّ مع الحواريين على جثة خنزير ميّت وقد انتفخ جسمه، وانتشرت منه رائحة نتنة. فقال أحدهم: ما أنتن ريحه؟!

وقال الآخر: ما أقبح منظره؟!

وقال الثالث: ما أبشع لونه؟!

فقال عيسى ﵇: «ألا ترون بياض أسنانه»؟

لقد صدق الحواريون في كل ما قالوه. ولكن السيد المسيح ﵇ رأى بالإضافة إلى ذلك بياض أستانه.

إن المتفائل يجمع نقاط الضوء مهما كانت صغيرة، أما المتشائم فهو على العكس يجمع نقاط الظلمة مهما كان النور الذي حوله.

ألا ترى كيف أن أكثر الذين يقدمون على الانتحار في العالم إنما هم من المتشائمين الذين يرون العقبات الصغيرة وكأنها جبال؟ كما أن أكثر الذين يقدمون على الطلاق هم ممن يرون التوافه في الحياة وكأنها أساسيّاتها؟

بينما المتفائلون يتمتعون ليس بروح إيجابية فحسب، بل برؤية بعيدة المدى، لأن العدل سيحكم الكون كله في النهاية، والله تعالى قرّر الخير لعباده على كل حال.

ونجد نموذجاً للمتفائلين في قصة ذلك المزارع العجوز الذي رآه هارون الرشيد ذات يوم فسأله عن عمره، فقال العجوز: عمري إثنا عشر عاماً!

فقال له هارون الرشيد: يا هذا، عرفنا أن النساء ينقصن من أعمارهن، ولكنك رجل طاعن في السن، فكيف يعقل أن يكون عمرك إثنا عشر عاماً؟!

فقال الرجل: أيها الخليفة! لقد عشتُ معظم عمري

في زمن بني أميّة، وهو زمن الظلم والقهر، وعشت عشر سنوات في زمن المهدي العباسي، وهذه سنتين في زمن خلافتك.

وأضاف: فأنا لا أحسب العمر الذي عشته في زمن الأمويين، وعليه فإن عمري هو اثنا عشر سنة فقط.

وأعجب هارون الرشيد بكلامه هذا فأعطاه صرّة فيها ألف دينار.

ثم قال للرجل: أيها العجوز! ما الذي تزرع؟

قال: شجر الجوز.

فقال له هارون: ومتى تعطي هذه الأشجار ثمارها؟

قال الرجل: بعد عشرين عاماً.

قال هارون الرشيد: وهل تظن أنك سوف تبقى حتى تأكل من ثمارها؟

قال: لا، ولكن غيرنا زرع فأكلنا، ونحن نزرع ليأكل غيرنا.

فرمى إليه هارون صرّة أخرى فيها ألف دينار.

فقال الرجل العجوز: سبحان الله! من يزرع شجرة الجوز لا يحصل منها على الثمر إلّا بعد عشرين عاماً، وأنا زرعت اليوم وحصلت على الثمر اليوم أيضاً.

فرمى إليه هارون الرشيد صرّة أخرى فيها ألف دينار.

فقال الرجل: سبحان الله! غيري يحصد في العام مرة واحدة، وقد حصدت أنا مرّتين.

فرمى هارون الرشيد إليه صرّة أخرى فيها ألف دينار.

ثم قال الرشيد لوزيره: دعنا نذهب من هنا بسرعة لأنه يبدو أن الحديث مع هذا الرجل بحاجة إلى جبل من الذهب. كان الرجل متفائلاً، فبالرغم من كبر سنّه يزرع شجرة الجوز التي لا تعطي ثمارها إلّا بعد عشرين سنة.

بينما لو قلت للمتشائم إزرع حديقة دارك بورود فصلية، فإنه يقول لك: يا أخي.. من يعرف كم سنعيش في هذه الحياة؟

وقد أكد رسول الله ﷺ على ضرورة التفاؤل في الحياة حينما قال: «إذا كانت بيد أحدكم فسيلة وأراد أن يزرعها، فقامت الساعة فليزرعها»[1].

إن لحظة قيام الساعة ليست أمراً سهلاً، فقد قال عنها القرآن الكريم: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[2]. ومع ذلك فإن على المزارعين إذا قامت الساعة أن يكمّلوا زراعة ما بأيديهم.

وهكذا فإن التفاؤل المطلوب ليس مجرد تمنّيات، بل هو جهد متواصل يؤدي إلى صنع السعادة. لأن السعادة تُصنع بالعمل، وليس بالأماني الفارغة.

إن التفاؤل هو العمل والجهد، والنشاط الدؤوب، وتجاوز العقبات، وحل المشاكل.

يقول الحديث الشريف: «لا تكن ممّن يرجو الآخرة

---

(١) المستدرك، ج ٩، ص ١٢١، باب ١٣٢.

(٢) سورة الحج، الآية: ١.

بغير عمل، ويرجو التوبة بطول الأمل. يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها عمل الراغبين»[1].

ويقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «وأعوذ بك من دعاء محجوب، ورجاء مكذوب، وحياء مسلوب، واحتجاج مغلوب، ورأي غير مصيب»[2].

فإذا كنتَ ممن يرجو ويعمل، ويحث الخطى ويتفاءل، ويمشي ويزرع، فأنت ولا شك سوف تحصد نتائج عملك.

أما إذا كنتَ ممن ينام ويتمنى، ويقصّر في عمله، ويرجو النجاح من دون أن يبذل جهداً فلن تحصد سوى خيبة الأمل. يقول الإمام علي عليه السلام: «الجاهل يعتمد على أمله، ويقصّر في عمله»[3].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٤١٢، باب ١٥.
(٢) بحار الأنوار، ج ٩١، ص ١٥٥، باب ٣٢.
(٣) غرر الحكم، ص ٧٣، حقيقة الجهل.

فالأمل الكاذب يضرّ ولا ينفع. بينما العمل ينتج الأمل الصادق في النهاية.

فلكي تنجح في الحياة فإنّ عليك أن تجمع بين الأمل والعمل، وتكون حذراً في كل الحالات. وتعرف أنّ في الحياة نجاحاً وفشلاً، وخيراً وشراً، وأفراحاً وأتراحاً، حتى لا تُفاجأ بالمشاكل والمصاعب. فلا معنى لليأس في الحياة مع العمل، كما لا معنى للأمل بلا عمل.

# لكي تكون سعيداً
# أَسعدْ الآخرين

هل يمكن أن نكون سعداء في حياتنا؟

وهل السعادة مجرد سراب، أم إنها موجودة في متناول اليد في كل مكانٍ؟

وهل هي خارج ذواتنا، أم أنها مخزونة في دواخلنا؟

هل نحتاج للحصول على السعادة إلى أن نستثير شهواتنا ونستجيب لرغباتنا ونشبع حاجاتنا، أم أن للسعادة مصدراً آخر، يختلف عن ذلك تماماً؟

والجواب: إنّ كل شيء يتعلق بنظرتك في الحياة، وطريقتك فيها، والخطوات التي تتبعها في أمورك

اليومية. فالسعادة ليست مجرد خيال، وفي نفس الوقت فإنها ليست أيضاً سهلة المنال.

إنها لا تأتي حينما نريدها، فهي ليست مسألة تحصيلية، ولكنها تأتي كنتيجة لبعض الأمور. فمن يسلك سبيل الشقاء، وفي ذات الوقت يبحث عن السعادة، فإن تحقيقها له ضرب من المستحيل.

أما من يمشي في طريق تظلّله السعادة، فسوف يتمتع بالسعادة لا محالة. ولعل من الصحيح أن نقول إن السعادة (حالة معنوية) ومن يسعى للحصول عليها من خلال مجرد الماديات فهو باحث عن الماء في سراب.

إن البعض ينفق الآلاف لتحقيق بعض رغباته، فيقوم مثلاً بسفرةٍ بعيدةٍ للنزهة، ظناً منه أن ذلك يؤدي به إلى الظفر بالسعادة، لكنه حينما يعود إلى الدار يجد نفسه مُتعباً وقد أنفق المال والعمر ولم يعد إلى البيت بشيء. بينما إذا أنفق أحدنا بعض المال لرفع العوز عن محتاج،

أو أنفق بعض الوقت لقضاء حاجة أخيه فهو قد يشعر بسعادة تمتد معه إلى نهاية الحياة. إن البعض يظن أن من يملك الملايين يعيش سعيداً، ولكن ليست تلك معادلة مضطردة بالتأكيد، فكم من أثرياء انتحروا بسبب شعورهم بالتعاسة المطلقة؟

وكم من فقراء عاشوا في حياتهم سعداء إلى أبعد الحدود؟

يقول أحد الأثرياء في مذكراته: «كنت أظن أن السعادة تكمن في امتلاك المال، ولكنني حينما حصلتُ على المال، وجدتُ أن المال هو الذي إمتلكني، ولست أنا الذي إمتلكتُه. وبدل أن يخدمني أصبحت أنا خادماً له، وقد حُرِمتُ من لذة الالتذاذ بحلاوة النوم في الليل، كما حُرِمت من اللقاء بأولادي وعائلتي، أصبح كابوس القلق من الخسارة محيطاً بي في كل مكان.

وحينما كنتُ أقارن نفسي ببعض العمال الذين

يشتغلون عندي، كنتُ أجدهم أسعد مني حالا.. فقد سألتُ أحدهم ذات يوم: هل هو سعيدٌ؟

قال: الحمد لله، ولِمَ لا؟

قلت: ألستَ قلقاً على شيء؟

قال: لا أملكُ شيئاً حتى أقلق عليه.

ولكن استطعت أن أسترجع بعض السعادة حينما لم أجد عملاً في عطلة نهاية الاسبوع فاضطررت للبقاء في الدار، وتناولت فطور الصباح مع زوجتي وأولادي على غير العادة.. فشعرت بلذة عارمة.

فأن تكون مع أحبابك بعيداً عن قلق البحث عن المزيد من المال والتكاثر في حطام الحياة، لا يمكن شراؤه بكل أموال الدنيا وأملاكها.

وكان أن قررتُ أن أوزع ثروتي على من أحبّ، وحينما فعلت ذلك شعرت ببهجة لا يمكن وصفها، ولازلت أرفلُ في أحضان تلك البهجة».

وأنت أيضاً: جرّبْ ولو مرة واحدة السعي لقضاء حوائج الآخرين وحلّ مشاكلهم من دون الرغبة في الحصول على مقابل، لتجد كيف ستمتلك شعوراً غريباً بالفرح، فكأنّك امتلكتَ الدنيا وما فيها. ولتجد أنك اكتسبت وُدّ الآخرين وحبَّهم، ولتجد أيضاً أن جنابك مددت يداً واحدة إليهم، بينما امتدت إليك عشرات الأيدي. كل ذلك بالإضافة إلى أنك بذلك تكسب رضا الله (عزّ وجلّ).

من هنا فإنني لو سُئلت عن وصفة لامتلاك السعادة لقلت: إنها الالتزام بالمناقبيات والأخلاق الفاضلة، والعمل لنشرها بين الناس، ومدّ يد المساعدة للآخرين، وكسب رضا الله (عزّ وجلّ). . .

كما أنها قد تكمن في الإنجاز، فحينما تُتِم عملاً أقدمتَ عليه، وتبني داراً لعائلتك، أو تقيم مؤسسة لمنفعة الناس، أو تكمل كتاباً بدأت بتأليفه أو ما شابه ذلك. فإنك حتماً ستشعر بالسعادة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ما كلّ مَن أراد شيئاً قدر عليه، ولا كلّ مَن قدر على شيء وُفق له، ولا كلّ مَن وُفق أصاب له موضعاً، فإذا اجتمعت النيّة والقدرة والتوفيق والإصابة، فهناك تجب السعادة»[1] - أي تتحقق -.

غير أن ذلك سبب للسعادة في الدنيا، أما السعادة الحقيقية فهي السعادة في الجنة، حيث ليس وراءها من سعادة، ولا في غيرها من راحة. يقول ربّنا تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾[2].

ويقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: «إن السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم»[3]، ويقول عن المؤمن: «.. قد عبر معبر العاجلة حميداً، وقدَّم زاد الآجلة سعيداً»[4].

---

(١) كشف الغمة، ج ٢، ص ٢٠٨.

(٢) سورة هود، الآية: ١٠٨.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧، ص ٩٨، باب ٥.

(٤) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٤٢٧، باب ١٥.

ولعلّ بعض ما يكسبه الإنسان من الشعور بالسعادة في التزامه بالأخلاق الفاضلة، وعطائه للآخرين، وعبادته لرب العباد، هو من سعادة الآخرة.

ثم إن الالتزام بما سبق هو السبيل الوحيد لسعادة الفرد من جهة، كما أنه الأساس الرصين لبناء المجتمع الصالح من جهة أخرى.

ولقد انفردت التعاليم الإسلامية بميزة لا نجدها في التعاليم الوضعية الداعية هي الأخرى إلى بعض الأخلاقيات، وهي ميزة العطاء بلا مقابل رغبة في جزاء الآخرة.

فبالإضافة إلى أن تعاليم الدين تبني مجتمعاً صالحاً يضمن لكل فرد حاجاته، فهي تعطي ضمانات أكيدة للمؤمنين بأن يكونوا سعداء في يوم الجزاء.

وهكذا نجد أن السعادة مسألة معنوية قد يمكن تحقيقها بالوسائل المادية إذا استخدمناها لخدمة

الآخرين، وتحسين أوضاعهم، والعمل على راحتهم.

ومن هنا فإن للقضايا الاجتماعية أولوية على غيرها، بل أحياناً تتقدم الخدمة للآخرين على عبادة ربّ العالمين.

ألا نجد أنّ صلاة المؤمن إذا تعارضت مع انقاذ غريق لم تنفعه في شيء؟

ألا نجد أن واحداً من أكثر العابدين ـ بل سيّدهم ـ وهو الإمام زين العابدين عليه السلام يقطع طوافه ليذهب لقضاء حاجة مؤمن؟

إن أقرب الطرق إذن للوصول إلى السعادة في الحياة الدنيا والآخرة هو: أن لا نبحث عن سعادة أنفسنا، بل نتركها تأتينا عبر العمل لإسعاد الآخرين.

## تحمّل مذلة السؤال
## بدل أن تتحمّل مذلة الضياع

في حياتنا اليومية نمرّ بكثير من الأمور التي نجهلها، فإذا سألنا عنها فلن نقع في متاهات الضياع، وإلّا فلا يجوز أن نلوم أحداً إلّا أنفسنا.

صحيح أن في السؤال بعض المذلة حتى قيل: «السؤال ذلّ، حتى: أين الطريق» إلّا أن تحمل مذلّة السؤال أفضل من تحمل خسارات الجهل.

ثم لولا السؤال هل يمكن الحصول على المعرفة؟

ألا نرى كيف أن الأطفال يتعلّمون من خلال طرح الأسئلة المختلفة حول مبهمات الحياة والكون؟

غير أن الناس فيما يرتبط بالسؤال على نوعين: نوع لا يثق بنفسه أصلاً ولا يرى أنه قادر على تحصيل المعارف البشرية باعتماده على نفسه، فهو يشبه ذلك الذي يضيّع حاجة هامة لكنه بدل أن يبحث عن حاجته تجده يسأل الآخرين لعلّهم يبحثون عنها نيابةً عنه.

أما النوع الثاني: فهو الذي يَتحرَّج عن السؤال عما يجهله، وذلك استحياءاً وخجلاً من ظهور جهله أمام الأقران والأصدقاء.

وعندما نريد تقييم الموقفين نجد أن كلا الأمرين غير صحيح. فالنوع الأول من الناس لا يكلّف نفسه عناء البحث وتقصّي الحقائق فيعوّض عن عملية البحث بالسؤال، وعن عملية التحقيق بمحاولة الحصول على نتائج تحقيق الآخرين.

أما النوع الثاني فهو يفضّل الجهل على طرح الأسئلة، وذلك بسبب حيائه وخجله.

وهناك النوع الثالث الذي هو وسط بين هذين، فهو لا يعتمد على غيره في كل شيء، ولا يفضّل الجهل على السؤال. فلا هو مثل طفل صغير يسأل بدل أن يُفكِّر، ولا هو ممن يُفضّل الجهل على تجاوز خجله.

ولعل من أهم ما يحتاج إليه المرء عند طرح الأسئلة أن تكون أسئلته مرتبطة بأمر جديد، فلو عزمتَ على السفر إلى بلد لم تذهب إليه من قبل، فلا شك أنك ستكون بحاجة للكثير من المعلومات حول ذلك البلد، وإن لم تستفسر فلربما تضر بنفسك وتجلب التعاسة لها، وقد لا تكفي المعلومات التي تجمعها عن ذلك البلد، بل يتطلب منك أن تستفسر عن وسيلة الذهاب والإياب، واختيار أفضل الطرق المناسبة، والقوانين والمقررات الواجب رعايتها عند عبور الحدود.. فكم من مسافر خسر رحلته نتيجة جهله بأمور بسيطة تتعلق بالسفر؟ وكم من أشخاص وقعوا

في أزمات كبرى لعدم معرفتهم بقوانين البلد الذي يسافرون إليه؟

لقد التقيتُ شخصاً قد خسر رحلته لسبب تافه وهو عدم دفع ضريبة المطار، فعندما وصل إلى ضابط الجوازات، سأله عن ورقة وصول الضريبة، فأجابه: لم أدفع ولم أعلم بذلك..

فقال له الضابط: اذهب وادفع الضريبة أولاً.

وحينما ذهب ودفع الضريبة كانت الطائرة قد أقلعت، بينما كان لا يزال ينتظر دوره في طابور طويل ليختم على جوازه.

وفي رحلةٍ أخرى التقيتُ بمجموعة من الشباب في مطار قبرص، وكانوا قد تركوا المكان المخصص لكتابة عنوانهم الذي سيتواجدون فيه في بطاقة الدخول، وعندما سألهم ضابط الجوازات في أي فندق ستنزلون، قالوا: لا نعرف فندقاً محدداً.

فقال لهم: لا يمكن ذلك، بل لابدّ من تحديد الفندق الذي تريدون النزول فيه.

وهنا بدأت المشكلة معه، وفي النهاية أمر الضابط بإعادتهم على نفس الطائرة إلى بلدهم ولم يسمح لهم بالدخول، وبذلك خسروا الأموال التي صرفوها على الرحلة، إضافة إلى الإزعاج النفسي الذي تسبب لهم طردهم من البلد.

* * *

وهكذا فإنّ طرح الأسئلة أمر ضروري ولكنه بحاجة إلى أمرين:

الأول: إختيار أهم الأمور التي يحتاج المرء لمعرفتها.

الثاني: الحكمة في اختيار المسؤول، إذ ليس كل فرد أهلاً لكي يُسأل منه.

وهنا قد يقول قائل إن طرح الأسئلة مذلة بدليل قول الإمام علي عليه السلام حيث قال: «من صان نفسه عن المسائل جلّ»[1]، أي أصبح جليلاً في نظر الناس.

فلماذا يرضى أحد ذلك لنفسه؟ غير أنّ الظاهر أن المقصود من كلام الإمام عليه السلام ليس السؤال بشكل مطلق، فالسؤال من العلماء عون للشخص في مواقع جهله، لأنهم أهلٌ للمساعدة والعون، أما السؤال من الأشخاص غير الصالحين كالمتكبرين والمتبخترين؛ فإنه حقاً يُعتبر مذلّة للإنسان.

ومن جانب آخر فإن الحديث الشريف أراد الترويج للتفكير والتحقيق كبديل عن السؤال، فالاستفسار يأتي في المرتبة الثانية لكسب المعرفة وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بذلك قائلاً: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا

(١) غرر الحكم، ج ٥، ص ٢٣٩.

تَعۡلَمُونَ﴾[1]، كما روي عن أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «جالس العلماء تزددْ علماً»[2].

أجل.. لكي تعرف إسأل. ولكي لا تقع في المشاكل إستفسر، وتلك من حِكم الحياة.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٢) غرر الحكم، ج ٣، ص ٣٥٧.

# صرخات الضعفاء أقوى من أسلحة الأقوياء

كلّنا يعرف قيمة الصوت، فهو وسيلة النطق، ومن يخسره، فهو يخسر القدرة على التفاهم مع الآخرين، هذه القدرة التي تميز الإنسان عن الحيوان فتجعله يَتحكّم بصوته، وينظّم نبراته ليكون أكثر ملائمة حسب الظروف المختلفة، ويمزج فيه الفكر والعقل ليتحول الصوت المنطوق إلى كلام معقول، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الصوت بحد ذاته سلاح فعال. ويستطيع كل إنسان وبسهولة استخدام هذا السلاح إذا داهمه الخطر، فلو تعرّضت لمحاولة اعتداء أو سرقة في الشارع، فإن صرخة قوية منك كافية لردّ المعتدين.. وكثيراً ما تنقذ

الصرخة حياة صاحبها من موت مُحتّم، وفي كثير من الأحيان تكون أقوى من السلاح لدى الطرف الآخر.

غير أنّ البعض قد ينسى إمتلاكه لهذا السلاح إلّا النساء فإنهن يحسنّ استخدامه، فكثيرة هي الفتيات اللاتي إستطعن التخلص من المجرمين الذين أرادوا الاعتداء عليهن باستخدام صراخهن فقط، حتى وإن لم يؤدي ذلك إلى اعتقال المعتدين، ولكن أصواتهن كانت كافية لهزيمة المعتدين ودفعهم للهروب.

إن الطفل عندما يولد يرافقه خوفان: الخوف من السقوط، والخوف من الأصوات.. وهذا يعني أن في أعماق الإنسان منطقة يهزها الصوت المرتفع وتدفع به إلى التراجع.

إذن يمكن القول أن «صوتك سلاحك»؛ فاعرف أين، وكيف، ومتى، تستخدمه؟

وقد يظن الضعفاء أن الوحش إذا ساد الغابة فإنّ على

سكانها أن يتحولوا إلى فئران، ولا خيار ثالث لهما.

غير أن الخيارات المتاحة لك كثيرة جداً، فبين القوة والضعف هناك مسافة طويلة من الخيارات التي تنقذ الضعيف وتطير به إلى أعلى القمم، كالعصفور الضعيف الذي لا يتمكن الأسد من إلتهامه لأنه طائر، فعنصر الضعف هنا يوازيه عنصر آخر من القوة حيث يستطيع هذا الكائن الصغير من خلاله أن يتحرك في أجواء أكثر حرية من الأسد وهي أعالي السماء.

والإنسان في أحيان كثيرة يواجه مثل هذه الظروف الصعبة فيتعرض مثلاً للظلم من قِبَل شخص آخر، فإذا سكت عن حقه فلن يساعده الناس للحصول على ذلك الحق، أما إذا صرخ ونادى بحقه فإنه سيكون الأقرب للوصول إلى مرامه.

أما الركون للظلم فهو مصيبة لأنه يعتبر إعانة للظالم على اضطهاده للناس.

وأما تشجيعه والتصفيق له فإنه يُعد مشاركة صريحة له في ظلمه بدعمه والوقوف إلى جانبه.

وخاطئ مَن يظن أن على المظلوم أن يسكت على الظلم، وينسى قوة الصرخة الشجاعة المرهبة لقلوب الظالمين والمؤنسة لصدور الفقراء والمساكين..

ألا ترى كيف أن كل صرخات الحق في التاريخ تتردد أصداؤها حتى الآن في التاريخ؟

حقاً إن صرخات الضعفاء أقوى من كل أسلحة الأقوياء. وهي من نعم الله المتوفرة لجميع الناس في كل وقت وزمان.

## عصر المعجزات !!

سألني أحدهم: هل نحن في عصر المعجزات؟

قلت: كلّا.

ثم أردفت قائلاً: نعم.

فقال متعجباً: كيف يمكن أن يكون الجواب كلّا ونعم، في آن واحد؟

فقلت: إذا كان المقصود بالمعجزة أن ينام المرء على وسادة من حرير وينتظر أن تقوم الأرواح أو الملائكة بانجاز الأعمال التي تقع مسؤوليتها عليه، فبالتأكيد نحن لا نعيش في عصر المعجزات ولم يحدث ولن يحدث ذلك أبداً.

فالله سبحانه وتعالى «يؤيّد» المؤمنين العاملين، ولكنه لا «ينوب» عنهم، والملائكة أيضاً تقوم «بتسديد» أعمال الصالحين إلّا أنها لا «تؤدي» أدوارهم.. فليس من سنّة الله سبحانه أنْ ينام الإنسان بينما الملائكة تعمل بدلاً عنه.

أما إذا كان المقصود بالمعجزة هو انتظار النتائج الكبرى من الفعل الإنساني البسيط، فنحن فعلاً في عصر المعجزات، حيث وصل الإبداع الإنساني إلى مراحل راقية من التطور والتقدم.

فالمجهود الإنساني هنا يحقق من النتائج بنفس النسبة التي تحققها البذرة بعد سقيها لتصبح شجرة باسقة، فمن القليل يتحقق الكثير، فمن سنّة الله (عزّ وجلّ) أنه يعطي الكثير على القليل.

فالله سبحانه لا يتدخل في أعمال البشر إلّا لمساعدتهم وتسديد خطاهم، ولابدّ أن نثق دائماً أن

هنالك يداً غيبية قد تمتد إلينا في اللحظات الحرجة لتنجينا من الهلاك، وتعيننا على تخطي الصعاب.. علينا أن نتأكد بأن الله (عزّ وجلّ) لا يهمل عباده، لأنه ربّنا الذي خلقنا وسوّانا وأعطانا، ولا تزال قدرته مهيمنة على الكون لتنظيم الحياة وتقسيم الأرزاق.

فكم من لحظةٍ حرجة مرّ بها الإنسان فامتدت له يد الغيب لتساعده وتمنعه من التردي؟

وكم من خطوةٍ كاد أن يخطوها، ولكن هاتفاً غيبياً منعه من ذلك، فاكتشف فيما بعد إن في تلك الخطوة كان هلاكه؟

وكم من صفقةٍ امتنع الإنسان عن إبرامها، ثم اكتشف أنها كانت خاسرة؟

إن الله (جلّ وعلا) عالم بكل أفعالنا، وغالباً ما يمدّ يده لينتشلنا من المحن التي تواجهنا، ولو اختلّ النظام الكوني الذي يمسك به الله، لفُنيت البشرية خلال ثواني،

فعوامل الدمار والهلاك تحوم حول الإنسان في كل آن..

انظر إلى الفيروسات والميكروبات وكل الأمراض القاتلة التي تقتحم جسم الإنسان عبر الهواء أو الماء أو الطعام، ولكنها تبقى عاجزة أمام نظام المناعة الموجودة في داخله.

فمن الذي يمنع هذه العوامل الضارة من أن تفتك بالإنسان؟

ومن الذي يتركها تفعل ما تريد، عندما تحين ساعة وفاته لتفتك به وتهلكه؟

أليس هنالك يداً غيبية تقف وراء هذا النظام المتكامل.. لتمنع الأقدار في غير زمانها، وتطلقها في ساعتها؟

نعم.. هذا العصر إنما هو عصر المعجزات، وكل عصر هو عصر المعجزات بشرط أن نعمل ونتكل على الله (عزّ وجلّ).

## ضع في حسابك القَدَر

يمكنك أن تقرر ما ترغب القيام به، ويمكنك تنفيذ ما قررت، ولكن هل ستبقى كل الأبواب مشرعة أمامك إلى الأبد لتقرر كل شيء، وتنفّذ كل ما ترغب، أم أن هناك دائماً احتمالات أخرى؟

الحق، إنه ليس الناجح هو من يستطيع تنفيذ كل ما يقرر، وتحقيق كل ما يرغب فيه، بل الناجح هو من يضع في حساباته احتمالات الفشل أيضاً، ويتعامل مع الحقائق كما هي، من دون تفاؤل مفرط وثقة مطلقة.

فمن الحقائق البديهية أن الحياة مسرح كبير للإرادات، وأعظمها هي إرادة خالق الإرادة، التي لابدّ

أن نضعها في حساباتنا في جميع خطواتنا وأعمالنا.

وهذا يعني أن للإنسان شريكين في أعماله: القَدَر، والآخرون، وقرارك بالقيام بما تستطيع فعله في أمور مثل شرب الماء، وأكل الطعام، والسفر، وشراء منزل ليس ممكناً تنفيذه دائماً وأبداً، ففي أحيان كثيرة تجد أمامك عائقاً يمنعك من تحقيق أبسط الأمور، فإما أن يكون العائق حاجزاً من القَدَر أو مانعاً من الآخرين.

ولربما لا تتجاوز نسبة مشاركة الآخرين والقدر وتأثيرهما في حياتك على ٢٠ بالمائة، ولكن بمقدار هذه النسبة لا يستطيع المرء أن يقرر لحياته بمفرده وإنما سيكون بحاجة إلى عون من الآخرين، وسند من القدر.

وهذا يتطلب من الإنسان عندما يخطط لتنفيذ قراراته أن يفتح حساباً للآخرين وإراداتهم، وأن يضع في الحسبان احتمالات تدخل القدر.

ومن لا يفعل ذلك يضيف خيبة أمل جديدة إلى

خيبات آماله الكثيرة، ويزداد حينئذ تشاؤماً في أموره، بينما يمكن أن تكون الحياة أحلى من ذلك وأكثر سعادة للإنسان فيما لو غيّر نظرته للحياة، ذلك أن الحياة ليست ملكك وحدك، وإنما هي لك وللآخرين، ولست أنت إلّا واحداً من الملايين الذين خلق الله لهم الشمس والأرض والقمر والكواكب، وأعطاهم القدرات والإمكانات في هذه الدنيا.

ثم إن لله تعالى الهيمنة على الكون، وإرادته ماضية في الخلق، فلربما تعلقت إرادته بإيقاف كل شيء وإنهاء كل شيء، وحينئذ لا تنفع الخطط، ولا ينجح العلاج..

فضع في الحسبان احتمالات القدر، لأنه صاحب الكلمة الأُولى والأخيرة.

ولهذا قيل قديماً أن «نيّة المؤمن أبلغ من عمله» لأن الإنسان قد ينوي أمراً حسناً، ولكن القدر يمنعه من القيام بذلك، فهو مثاب عند الله على نيّته الحسنة.

من هنا يجب أن تجعل فعل الخير إرادة في ضميرك، ونيّة في قلبك، على أن تفعله إذا ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

أهون الناس عزيمةً من يعجز عن النيّة الحسنة، فما ضير أن تلازم المرء نيّة الخير دائماً وبلا فتور، فإذا تمكن من القيام بذلك فبها ونعمت، وإلّا كانت النيّة الحسنة شفيعة له، أما مَن لا ينوي فعل الخير فإنه لن يوفق للعمل الصالح في كل الأحوال.

من هنا فإن تمنّيات من نوع: «ياليتني كنت أملك مالاً لأوزعه على الفقراء»، و«ياليتني أكون قادراً على مساعدة الآخرين»، و«ياليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً»، كل هذه التمنيات هي أمور حسنة لأنها تنبع من نيّة الخير.

فلو أنك تمنيت لو كنت حاضراً مع رسول الله ﷺ للذود عنه في المعارك والحروب، أو تمنيت لو كنت

حاضراً مع الإمام علي عليه السلام لتقف إلى جنبه في الأزمات الملمّات، أو تمنيت لو كنت مع فاطمة الزهراء عليها السلام لتنصرها وتردّ عنها البغي، أو كنت مع الإمام الحسن عليه السلام فِي وقت الشدة والكرب، أو مع الإمام الحسين عليه السلام لتستشهد معه. كل ذلك نيات حسنة، بشرط أن تكون صادقاً فيها، بحيث تقوم بالفعل بتنفيذ ما تمنّيت منها إذا أصبحت قادراً على ذلك، وتحوِّل هذه الأمنيات إلى فعل واقعي وملموس، لأن النية تحوِّل الأفكار التي لا يمكن تحقيقها في الوضع الحالي لأسباب مختلفة إلى العقل الباطن، وهناك ستترسخ هذه الأفكار وتندمج مع الإنسان بحيث يصبح تحقيقها من همومه، ولن يستريح ذهنه وتفكيره إلّا بتحقيقها.

فالسعي إلى الخير يبدأ في النية، وتمني الخير دافع إلى فعله.

إن النية ترتبط بالعقل الباطن، وهو يلعب دوراً لا يُستهان به في سلوكنا وتفكيرنا. ولكن منبع العبقرية هنا

يكون بخلق المشاعر الطيبة في النفس بحيث يغمرها الاطمئنان والرضا في الربح والخسارة، والانتصار والهزيمة.. أو كما قال (برنارد شو): «اجعل نفسك نظيفة وذكية، فهي النافذة التي يجب أن ترى من خلالها العالم».

ولا تكون النفس نظيفةً إلّا بمشاعرها الصادقة التي تدفع إلى السلوك الطيب.

وهكذا فإن على من يرغب في إنجاز الأعمال العظيمة والنجاح في الحياة، أن ينوي الخير، ويتمنى تحقيق أفضل الأعمال، ولكن مع وضع الأقدار في حساباته، وعدم إلغاء إرادة الآخرين.

فإذا نوى الخير ومنعه مانع، فقد حقق أهم الأمور وهو التغلب على عقبة النفس الأمارة بالسوء، وإذا استطاع تحقيق ما نواه يكون قد أنجز الأمرين معاً: التغلب على الذات، وتجاوز العقبات.

## ثمن الاستضاءة بالشمعة.. احتراقها

لكل شيء ثمن، وكلما كانت جودة الشيء أكثر كان ثمنه أكبر، ولن يحصل أحد على أي شيء إلّا إذا كان مستعداً لدفع ثمنه، فمن يريد قرصاً من الخبز فإن عليه أن يدفع مقدار ما يوازي قيمته من المال، ومن يريد شراء دار للسكنى فلابدّ أن يدفع من المال ما يوازي قيمة تلك الدار.

أما من يريد السعادة فإن عليه أن يدفع ما يوازي قيمة ذلك، ومن يريد الحرية لابدّ أن يتنازل عن راحته كثمن للحصول عليها..

وهكذا فإن لكل شيء ثمنه، لن يكون لأحد من الحق إلّا بمقدار ما عليه من واجب، ولن يحصل على شيء إلّا

إذا أعطى شيئاً مقابله، فالحياة تَقابُلٌ بين الحقوق والواجبات، أي بين ما يأخذ الإنسان وما يدفع، تماماً كما أن الحركة تَصرِف من الطاقة بما يوازيها، وكما تصرف الشمعة من جسدها بمقدار ما تعطي من الإنارة لما حولها.

والسؤال هنا هو: يا ترى ما هو ثمن الحبّ؟

ربما يقول قائل: إن ثمن الحبّ هو حبٌّ مثله، فحبك لأخيك هو ثمن حبّه لك، لكنني أعتقد أن هذا ليس هو ثمن الحبّ، لأنه ليس فيه احتراق، فحبّك لأخيك لا يكلفك شيئاً.

فما هو إذن ثمن الحبّ؟

إن الثمن هو الألم، فبمقدار ما تحبّ يجب أن تتحمل ألم الفراق، فهذا هو الثمن الذي ندفعه في مقابل حبنا لشخص ما، ولو لم نحبّ ونفرح معاً، لما عرفنا ألم الفراق وحزن الغياب.

يقول الإمام علي عليه السلام في فراق زوجته، سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام:

لكلّ اجتماع من خليلين فرقةٌ
وكلُّ الذي دونَ الفِراق قليلُ

وإنّ افتقادي فاطماً بعد أحمدٍ
دليلٌ على أن لا يدومَ خليلُ

وقد يقول قائل: إذا كان الألم هو ثمن الحب، أفليس من الأفضل أن لا نحب لكي لا نتألم؟

والجواب: عندما نتذكر الأمور التي كانت بيننا وبين من نحبّ من بهجة وسعادة وسرور ندرك أن الحب ثمين جداً، وإنه يستحق الألم الذي سوف ندفعه ثمناً له.

* * *

ثم إنه لا يكفي أن تحبّ أحداً في قلبك، بل لابدّ أن تترجم حبّك هذا في صورة كلمات وأقوال، وأعمال، ومواقف، أي في صورة رسالة تبعثها إلى من تحبّ، أو

هدية تقدمها إليه، أو خدمة تؤديها له، أو بأي شكل آخر.

إن الحبّ مثل بذرة إن لم توضع في الأرض ولم يتم سقيها بالماء فلن تنمو، وإذا نمت فإنها بحاجة إلى رعاية مستمرة وإلّا ستموت.. فمن أحبَّ أحداً فلابدّ أن يترجم حبّه بالأعمال والأقوال والكتابات والمواقف.

دع غيرك يحس بحبّك له كما تحس به أنت، وأعلن عن حبّك أمام الناس، فالحبّ كالزهر لا يستطيع العيش في الظلام لأنه بحاجة إلى النور، ومن يخفي حبّه يحكم عليه بالموت حقاً.

فعلى من يحب أن يبادر إلى إظهار مشاعره، والكشف عن عواطفه، وعلى الأقل لابدّ أن يخبر الطرف الآخر بحبّه له.

* * *

وهنا ملاحظة هامة، وهي: إن الحبّ الحقيقي يأتي عطاء، وليس جزاءً، فمن يحب لا يقوم بردّ جميل غيره،

بل هو صاحب الجميل.. ولا يعطي حبّه بناء على طلب الآخرين وإنما يعطيه ابتداءً، وليس كما يقول الشاعر:

وإنّي لحلوٌ إنْ أُريدتْ حلاوتي

ومُرٌّ إذا نفس العزوف استمرَّتِ

والحق أن المحبة بحاجة إلى أسس تعتمد عليها، شأنها شأن أي أمر آخر:

كالبيت لا يُبتنى إلّا له عُمُدٌ

ولا عماد إذا لم تُرس أوتادُ

فإرساء دعائم الحبّ يحتاج إلى قلب عقول، وجهد مبذول، وعطاء بلا دليل، ولعل من تلك الدعائم البحث عن محاسن الناس وذكرها، فإن كل واحد منّا يفرح بسماع الحقيقة عن محاسنه، ويستاء لسماع مساوئه، والناس كلّهم كذلك، وهذا أمر ليس بالشيء السهل، بل يتطلب منّا بعض الجهد..

فمن السهل على الفرد أن يذم، وينتقد، ويذكر

مساوئ الآخرين، بل إن البعض ربما يجد لذة كبيرة في أكل لحوم الناس. ولكن الصعب، الذي يحتاج إلى صدر واسع وقلب كبير، هو أن يتغاضى المرء، وأن يتسامح، وأن يمدح..

حقاً إن بذرة الحبّ تحتاج إلى سقي، وإلى عناية، حتى تزهر وتصبح برعماً، ثم شجرة يستظل بها الناس وتؤتي ثمارها كل حين.

## كن «طيِّباً» مع الآخرين
## قبل أن تطالبهم بأن يكونوا «طيِّبين» معك

يقع بعض الناس أحياناً في نفس الخطأ الذي يشتكون منه، ويمارسون نفس الأفعال التي يتذمرون منها، فهم يطالبون الآخرين بفعل الخير، وتخالف أقوالهم أفعالهم. ويتهمون الآخرين بالأنانية وعدم التعاون، وتراهم لا يقومون بأية خطوة للتعاون مع الآخرين. ويتهمون غيرهم بما لا يليق، في الوقت الذي يشكون من اتهام الآخرين لهم.

ولحل هذه المشكلة فإما أن نتعامل بمبدأ مقابلة الإساءة بالإحسان وينتهي كل شيء، أو أن نتوقف عن الشكوى لكي لا يشتكي الآخرون منّا.

لقد كتبت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها إلى سيدة معروفة بتقديم النصائح للشباب، كتبت تقول: «مشكلتي الكبرى هي أُمّي، لأن التذمر يلازمها من الصباح الباكر وحتى المساء، وتصب عليَّ أوامرها قائلة: اطفئي التلفزيون، اكتبي واجباتك، اغسلي وجهك وأسنانك، قفي مستقيمة، نظفي غرفتك...».

وتساءلت الفتاة: كيف أجعلها تتركني وشأني؟

ولأن الفتاة المتذمرة لم تقبل النصح السليم في الوقت الصحيح، فإنها ستكون مجبرة على قبول النصيحة من المرأة التي كانت تقدم النصائح لأمثالها فردت عليها السيدة قائلة: «اسمعي كلام أملِكِ، ونفذي أوامرها: اطفئي التلفزيون، اكتبي واجباتكِ، اغسلي وجهكِ وأسنانكِ، قفي مستقيمة، نظفي غرفتكِ.. وهكذا تجعلين أُمكِ تتركِكِ وشأنكِ».

عندما نتذمر من عدم تعاون الآخرين، لابدّ أن نكون

نحن مستعدّين للتعاون وإلّا فلا قيمة للكلام الذي نقوله..

وعندما نطلب فعل الخير من الآخرين لا بدّ أن نكون أول من يبادر إلى فعل الخير، فعيون الناس تسبق آذانهم، فهم يرون ما نفعل، ولا يسمعون بعد ذلك ما نقول.

وحينما نشتكي من التذمّر فإننا نرتكب نفس الخطأ الذي ارتكبه الآخرون بحقنا، لأننا «نتذمر» بسبب «تذمّرهم»، ونترك «التعاون» لتركهم التعاون، و«نتهم» لأنهم «يتهمون».. إن هذا هو ردّ الإساءة بالإساءة، وليس رد الإساءة بالإحسان.

إن كثيراً من النصائح التي يقدّمها الناصحون لها مكان من الصحة والصواب ولابدّ أن نتقبلها كما هي، فقد يكون انتقادهم صحيحاً، فإن كانوا على حق فعلينا أن نغيّر طريقتنا، وإلّا فما قيمة التجاهل والإصرار على الخطأ؟

إن الآخرين مرآة صافية نعرف بها تصرفاتنا ، فإذا خلُصت نيّاتنا فإننا نستطيع أن نغير من اعوجاجنا ونعدل من تصرفاتنا ، فإن ذلك طريق التكامل والنجاح.

إن الأكثرية من الناس هم في الحد الفاصل بين ما يجب أن يكونوا عليه، وما هم عليه بالفعل، وقد يجعل الإنسان مقياسه للصالحين هو ما يجب أن يكونوا عليه، ولأنه لا يجد في الواقع الخارجي من هو مثال لذلك فلربما يتعامل مع الناس معاملة غير سليمة باعتبارهم قصّروا في واجباتهم.

غير إننا لو تصرفنا معهم، ليس على أساس ما يمكن أن يكونوا عليه، فلربما ساعدناهم في أن يكونوا كما يجب أن يكونوا عليه.

فلو تصرفتَ مع ابنك كشخص يوثق به، فلربما يخطئ معك مرة أو مرتين، إلّا أنه سرعان ما يسعى لكي يصبح بالفعل شخصاً يوثق به.

وما ينطبق على أبنائك ينطبق أيضاً على أبناء الناس، والأجدر بك أن تتصرف مع عامة الناس على أساس أنهم يمثلون الصورة الجيدة لما يجب أن يكونوا عليه. •

إن الكمال لله وحده، فلا يجوز أن نتوقع من البشر أن يكونوا كاملين لأن ذلك ليس في مقدورهم. ولو كان بمقدورهم لما تأخروا عن الوصول إليه.

ثم إن علينا أن نحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب الناس، وأن نكون «طيبين» معهم قبل أن نطالبهم بأن يكونوا «طيبين» معنا، إذ ليس النجاح في أن يحصل المرء على صديقٍ طيّب، بل النجاح في أن يكون هو صديقاً طيباً للآخرين.

كما أنه ليس النجاح في أن تحصل على زوجة صالحة، بل في أن تكون أنت زوجاً صالحاً لزوجتك، وبذلك تتخلص من سطوة حب الذات الذي يسبب الشكوى والتذمر من الآخرين. فالركض وراء المصلحة

الخاصة ـ إشباعاً للأنانية ـ لا يوصلنا إلى نتيجة طيبة، وإكراه الناس على إشباع رغباتنا لا يوصلنا إلى بُغيتنا.

يقول أحد المفكرين: «لا شيء أخطر من السماح للمصلحة الخاصة بأن تسيطر على أعمالنا وتُسيّر سلوكنا.. ومن الخطأ حقاً أن يعتمد الإنسان على حبّ الذات باعتباره منطقاً لأعماله ومشاريعه، فيطالب الجميع بأن ينفعوه من دون أن يسعى لكي ينفعهم».

## كيف تصنع الثقة؟

هل صنع الثقة بين الناس موهبة أم صناعة؟

قد يُخيّل للبعض أن الثقة مكرمة سماوية لبعض دون آخرين، وهي لذلك جديرة بالديمومة والبقاء. وإذا حلّت لدى شخص فإنها لا تنفك عنه أبداً.. غير أن الأمر ليس كذلك.

ألا ترى، كيف اننا أحياناً نصاب بخيبة الأمل، لأن من نثق به يخون، فتلازمنا الريبة والشكوك وسوء الظن بالناس.. وبعدها ندرك أن الثقة ليست موهبة إلهية، وإنما هي ردّ فعل لتصرفات الآخرين، فلو كانت هذه التصرفات حسنة فسنمنح لهم كل الثقة، أما لو خالفت

العرف والعقل فإننا سنسحب هذه الثقة منهم بلا ندم.

فالثقة هي من صنع الإنسان، وبإمكان أي شخص أن يغرسها في قلب أي إنسان آخر، إذا ما رغب في أن يثق به الناس. ولكن الثقة مثل بنتة غُرست للتوّ، فهي بحاجة إلى سقيها بالإرادة، وإلّا فهي تذبل وتموت.. فإذا اتفقت إرادة طرفين على التعاون ينبغي عليهما أن ينمّيا الثقة بينهما من خلال التصرفات الحسنة، كل واحد منهما تجاه الآخر.

والصراحة هنا أفضل أسلوب لتحقيق الثقة بين الأفراد، لأنها ستساعد كل واحد من الطرفين على معرفة بعضهما البعض، وتقرب قلوبهما، لأنهما سيشعران بنفس الشعور الذي ينتاب أحدهما تجاه مختلف القضايا، فالصراحة أقرب الطرق للوصول إلى القلوب.

وإذا لم يتحقق التوافق إلّا في إرادة أحد الطرفين،

فإنه يتوجب على هذا الطرف أن يسعى لتحريك إرادة الطرف المقابل نحو الاتفاق، وهذا بالطبع يتطلب جهداً بالغاً، لأن زرع الثقة في الإنسان ليس كلاماً يقال، وإنما لابدّ أن يُترجم على شكل أفعال تجلب الثقة.

فالثقة كالمحبة يمكن أن تهبط على قلبين فتربطهما من دون شعور منهما، كما يمكن أن ينسج خيوطها أحد الطرفين ويتدرج في ربطها بالقلب الآخر، فعلينا أن نصنع الثقة وأن نحرص على بقائها، لأن الإبقاء على الثقة قد يكون أصعب من صنعها.

فكم من صديقين حميمين عاشا عقوداً من الزمن في ثقة وانسجام، ثم انفرط العقد بينهما وحلت العداوة مكانها؟

وكم من أعداء أصبحوا أصدقاء وتوثقت العلاقات فيما بينهم، وصمّموا على تبادل الثقة، من بعد نزاعات ومقاطعات بين الأطراف؟

فالثقة صفة أخلاقية تربط ما بين الناس وتجمعهم في علاقات حسنة، وأكثر الناس حاجة إليها، هم السياسيون والزعماء ورجال الأعمال، وكلما كان موقع الإنسان حساساً كانت حاجته إلى ثقة الناس أكثر.

* * *

والسؤال هنا هو: ما هو أساس صنع الثقة؟

والجواب: إنه الالتزام بمعاني الأخلاق، فهي التي تكسب ثقة الناس وتجعل صاحبها سكناً لهم، فقوام المجتمع مبنيٌّ على أساس الأخلاق و«المعروف» المتفق عليه، فلا يوجد مجتمع مدني من غير أساس أخلاقي، كما لا توجد حضارة من غير أصول أخلاقية.

حقاً إن الأخلاق جوهر الحضارات والديانات، ولهذا فقد جاء في الحديث الشريف المروي عن

رسول الله ﷺ: «إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

ثم إن للأخلاق بُعدان؛ أحدهما: يصعد إلى الله (عزّ وجلّ)، والثاني: يصل إلى الناس، فلولا الأخلاق لما غفر الله تعالى للعباد، ولولا الأخلاق لما تحابّ العباد وتعارفوا فيما بينهم.

يقول رسول الله ﷺ عن البعد الأول: «جعل الله سبحانه مكارم الأخلاق صلة بينه وبين عباده، فحسب أحدكم أن يتمسك بخلق تصل بالله»[2].

وعن البعد الثاني، يقول الإمام علي عليه السلام: «لو كنّا لا نرجو جنّة ولا نخشى ناراً، ولا ثواباً ولا عقاباً، لكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم الأخلاق، فإنّها مما تدل على سبيل النجاح»[3].

---

(١) كنز العمال، خ ٥٢١٧.

(٢) تنبيه الخواطر، ص ٣٦٢.

(٣) مستدرك الوسائل، ج ٢، ٢٨٣.

فما هي الأخلاق؟

بالطبع: هنالك قائمة طويلة للمفردات الأخلاقية، غير إن أصولها معروفة، وقد تُدلّنا على هذه الأصول الكلمة الذهبية التي يقول فيها رسول الله ﷺ «أحبُّ عباد الله إلى الله جلّ جلاله أنفعهم لعباده، وأقومه بحقه، الذين يحببُ إليهم المعروف وفعاله»[1].

فالقاعدة الأساسية التي نستخلصها من هذا الحديث هي: أنّ عليك أن تعامل الناس بما ترغب أن يعاملوك به.

فماذا تريد؟ وماذا تحب؟ وفيم ترغب؟ حدّد كل ذلك ثم اعطها للناس. فإن المعروف الذي تسديه إلى الآخرين سوف يرجع إليك.

وقبل أن تأمر الناس بشيء إفعله أنت، فلا تكن ممن

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ١٥٢.

يأمر بشيء ولا يأتمر به، وينهى عن شيء ولا ينتهي عنه، وقد قال ربنا (عزّ وجلّ): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾[1].

ويقول الشاعر:

لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتي مثلَهُ
عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

إبدأ بنفسك، فانهَها عن غيّها
فإذا انتهتْ عنهُ فأنتَ حكيمُ

فمادامت الأخلاق هي دعامة الحياة، وهي التي تتحكم في تصرفات الإنسان، في الوقت الذي تقوم القوانين بوضع إطار لتلك الدعامة، فإن الأخلاق الفاضلة هي أولاً قرار أخلاقي.

---

(١) سورة الصف، الآيتان: ٢ ـ ٣.

فمن يصمم على الالتزام بمفردات الأخلاق، يكون حينئذ قد قطع نصف الطريق، وأما النصف الآخر فهو التعوّد على ذلك بمرور الزمن.

والأخلاق بعد ذلك دعامة الحياة الاجتماعية، بها يكون التآلف والتقارب، والوحدة والانسجام، وبها تتحقق سعادة الفرد، وسعادة الأسرة، وسعادة المجتمع.

فالبيت السعيد هو الذي يتمتع أهله بأخلاق حسنة، لا يتخاصم فيه أحد على أمور تافهة، ويثق بعضه ببعض، وكلٌ يؤدي واجباته، ويأخذ حقوقه، ويعفو ويصفح.

إن مثل هذا البيت السعيد يضحك لأهله، ويلفّهم في حنانه وحبّه، والمنازل سواء كانت في القرى أو المدن هي كالبشر سواء بسواء. فهي تحزن، وتتألم، وتلطم خدودها إذا سكنها طغاة البشر، ممن ليس لهم أخلاق أو ممن يُفسد في الأرض.

كما أنها تفرح وتستبشر إذا سكنها أُناس طيبون، يخافون الله تعالى، ويرجون رحمته. ويجمعهم الحب والإخلاص، وحُسن النية، وتؤلف بينهم الثقة. مثل هذه البيوت تدخلها الملائكة، ولا يدخلها الشيطان، وإنها تزهر لأهل السماء، كما تزهر الكواكب لأهل الأرض.

## إبدأ من الحد الأدنى

الحياة قائمة على الالتزام الخُلقي بين الناس، والحد الأدنى من هذا الالتزام يتحقق في أحد أمرين:

الأول: الالتزام ولو بشكل نسبي بمجمل المفردات الأخلاقية؛ أي الالتزام بشيء من الصدق، وشيء من الوفاء، وشيء من الكرم، وشيء من الشجاعة، وشيء من العطاء، وشيء من المروءة..

الثاني: الالتزام المطلق بمفردة أخلاقية واحدة على الأقل.

فلكي نعيش مع الناس، ويستمر المجتمع متماسكاً

لابدّ أن يتحقق نوع من الالتزام ولو جزئياً بالفضائل الأخلاقية، أو الالتزام المطلق بواحدة من مفرداتها.

أما عدم تحقق الأمرين، فإنه سيؤدي إلى تفكك المجتمع، وانفراط العلاقة بين أفراده، إذ كيف يمكن أن يتعايش أشخاص لا يلتزمون بالحد الأدنى من الأخلاق الحميدة؟

وكيف يمكن التعامل مع من لا يلتزم إطلاقاً بالوفاء، والصدق، والمروءة وأمثال ذلك..؟

وقد يقول البعض: إن التحلّي بكل المفردات الخلقية لن يتم إلّا في الجنة، فكيف نُطالَبُ به في الدنيا؟

والجواب: إن هذا صحيح، إلّا أننا لم نطالب بالالتزام المطلق بالأخلاق وإنما طالبنا بالالتزام النسبي، وهذا يعني إن عدم إمكانية الالتزام المطلق بالأخلاق في الدنيا، لا يمنع السعي للسمو نحو المعالي، وتحقيق

مرتبة من مراتب الأخلاق السامية، فمن دون الأخلاق لا يمكن خلق المجتمع الفاضل.

ونحن نرى أن أغلب المجتمعات التي وصلت إلى الحضارة إلتزَمَتْ بنسب معينة من المفردات الأخلاقية، وتطورت حياتهم بنفس تلك النسبة التي التزموا بها، وكلّما اشتدّ الالتزام كلما زادت نسبة التطور لديهم.

وقد يسأل البعض: ترى، لو أن المجتمع إلتزم بمفردة أخلاقية واحدة بشكل كامل، ثم تجاوزت بقية المفردات، فهل سيكون ذلك نافعاً؟

والجواب: بالطبع سيكون الأمر كذلك، لأن التحلي بأية صفة أخلاقية وإن كانت واحدة، فإنه يجرّ إلى الالتزام بالمفردات الأخلاقية الأخرى، لأن الصفات الأخلاقية مرتبطة بعضها بالبعض الآخر بشكل طبيعي.. فالكرم مرتبط بالمروءة. والعطاء مرتبط بالرجولة. والوفاء مرتبط بالصدق.. وهكذا.

وكما يقول الإمام علي عليه السلام: «إذا كان في الرجل خلة رائعة فانتظر أخواتها»[1].

فهل يمكن أن يكون المجتمع ملتزماً بشكل كامل بصفة الصدق من دون أن يكون ذلك المجتمع ملتزماً بالوفاء أيضاً؟

بالطبع.. كلّا.

إذن التحلي بصفة خلقية واحدة سيؤدي بالتالي إلى الالتزام بباقي الصفات الخلقية.

* * *

ثم إن الأخلاق تنبع من ذات الإنسان، فمن كانت نفسه عذبة، وكانت نيته حسنة، وقلبه طاهراً، وعقله مضيئاً فإنه سيلتزم بمحاسن الأخلاق، وجميل الصفات، ويكون نموذجاً لكل الفضائل. غير أن ذلك وحده لا

---

(١) بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٤١١.

يكفي، بل لابدّ من توفر التربية الحسنة تماماً.

كما أنه لكي يأتي النبات صالحاً فلابدّ أن تكون النواة سليمة، والأرض صالحة أيضاً.

من هنا فإن من يتربّى تربية حسنة، ويتغذى غذاءً عقلياً جيداً، فسوف يكون بداية مجتمع صالح، لأن الأرض الطيبة يخرج نباتها طيباً. والذي خبث لا يخرج إلّا نكداً.

أما الذي يتربّى في أحضان الفاسدين فلا يمكن أن يتمتع بطيب الخلق، وحسن الصفات. فربما يكون شجاعاً، ولكنه لا يضع شجاعته في خدمة العدل والدفاع عن المظلومين، بل يضعها في خدمة الظالمين. وليس هناك منطقة وسطى بين السواد والبياض، فمن يملك صفة أخلاقية واحدة بشكل عصامي، يكون حاملاً لبقية الصفات ولكنها مختبئة فيه، وتحتاج إلى من يُظهرها، ويخرجها.

ومعاشرة أهل الفضائل تخرج المكنون من الصفات الجميلة، بينما معاشرة أهل الآثام تخرج المكنون من الصفات السيئة، ولذلك يجب على كل إنسان أن يتجنب معاشرة الأشرار، ويتجه نحو أهل الخير، ليُحلّق في سماء الفضائل.

## كيف نتعامل مع من يخالفوننا في العقيدة؟

الحياة في الدنيا تتطلب العيش المشترك بين بني البشر، كما تتطلّب حسن التعامل مع الطبيعة من حولنا أيضاً.

فالناس، مع قطع النظر عن معتقداتهم، بحاجة إلى بعضهم البعض، ولذلك فإن هناك مسألتين يجب الفصل بينهما:

الأُولى: إن المعتقدات البشرية ليست كلّها صحيحة حتماً، فهناك فيها حق وباطل وصحيح وخطأ.

الثانية: إنّ المعتقدات لا إرتباط لها بضرورة حسن التعامل مع الناس إذا أحسنوا التعامل معنا، فأن تسأل

هل هذه الديانة، وذلك المعتقد حق أو باطل شيء، وأن تسأل هل يجوز التعامل مع هذه الفئة أو تلك مسألة أخرى لا إرتباط لها بالأُولى.

فهناك أمران منفصلان:

الأول: إن بطلان الأديان والمذاهب والمعتقدات التي ما أنزل الله بها من سلطان أمر لا شك فيه، وذلك لأنه لا أساس في صحتها، فمن يعتقد بألوهيّة القمر والشمس، أو يؤمن بأن الشيطان هو الخالق، وأن هذه الشجرة أو تلك مقدسة إنما هو في ضلال مبين، ولكن هل هذا يكون سبباً لأن نقطع علاقاتنا الإنسانية معه؟

نحن نأسف لضلالة مثل هذا الإنسان وندعو له بالهداية، إلّا إن ضلاله ليس حاجزاً أمامنا لتكوين أفضل العلاقات الإنسانية معه، فارتباطنا به ينبغي أن يكون على أساس حُسْنِ تعامله معنا، لا على أساس ما هو في قلبه.

الثاني: إن أخلاق الفرد هو المقياس الذي من

خلاله نحكم بأنه يصلح للتعامل معه أم لا ، فمن يظلم الناس، ويصادر حقوقهم فحتى لو كان يعتقد اعتقاداً كاملاً بالله العزيز الحكيم، ويؤدي العبادات المفروضة عليه بشكل كامل، فليس صحيحاً أن نغض الطرف عن ظلمه وعدوانه، ونقبل بالتعاون معه لأنه يَدَّعي الإيمان بالله تعالى ويقوم ببعض العبادات.

إن من المفروض أن يكون موقفنا سلبياً تجاه كل من يسيء التعامل مع الناس ـ مع قطع النظر عن معتقده ـ كما يجب أن يكون موقفاً إيجابياً مع كل من يُحسن التعامل مع الناس ـ مع قطع النظر عن معتقده أيضاً ـ إننا نعيش في عالم الدنيا ، وليس في عالم الآخرة، فهنا التعامل هو على أساس الأخلاقيات، فلو افترضنا أن شخصاً كان يؤمن بأشياء خرافية، لكنه كان بين الناس عادلاً في إتيان حقوقهم بعيداً عن التزوير والاحتيال، وسرقة المال الحرام، فهو يستحق منّا المعاملة الطيبة.

فمن كان مشركاً لكنه لم يكن ظالماً أو سارقاً أو

قاتلاً، وكان سلوكه حسناً بين الناس فهو مشمول بهذه الآية الكريمة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾[1].

أما من كان مؤمناً بمعتقداتنا (أو متظاهراً بذلك) ولكنه يفعل الخبائث، ويرتكب الظلم، ويعمل الجريمة فلا يستحق على ظلمه وجريرته غير التوبيخ والتأنيب والقصاص العادل، وعقابنا هذا إنما هو جزاء لما اقترفه تجاه البشرية.. وتصرفنا معه نتيجة طريقته النابية وليس على أساس معتقداته.

من هنا فإن تصنيف الناس بين أخيار وأشرار يجب أن يكون بحسب أعمالهم ومواقفهم، حتى لا ندافع عن باطل قومنا، لأنهم قومنا. ونظلم الآخرين لأنهم من غير قومنا.

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٨.

إن من واجبات المؤمن العمل من أجل إصلاح الناس وهدايتهم، وهذا لا يتحقق أبداً إلّا ببناء العلاقات الاجتماعية السليمة معهم. وإذا فرضنا جدلاً بأن علاقات المجتمع كلها غير سليمة، لأن الناس أكثرهم غير مؤمنين، فمن يُصلح المجتمع؟ هل يجب أن نتوقع أن يأتي ملك من الملائكة لهذه المهمة؟

أم أن الناس يأتون من تلقاء أنفسهم إلى أهل الفقه والاجتهاد، ويطلبون منهم المساعدة في هدايتهم إلى الصراط المستقيم؟

إن المؤمن لا يجوز أن يكون مسكوناً بسوء الظن بالآخرين لأنه نوع من الإثم، فكما أن لتصرفات الناس صفحة سوداء مظلمة، فإن هناك كذلك صفحة بيضاء ناصعة، وكما أنّ هناك أُناس أشرار فإن هناك أيضاً أُناس أخيار. لقد ابتلى الله نبيّه يونس عليه السلام بالسجن في بطن الحوت بعد أن دعى على قومه بالعذاب، لأنه لم يصبر عليهم، مع أنهم كانوا مشركين.

إنّ حمل نظرة سلبية تجاه المجتمعات البشرية، يمنع المرء من إقامة علاقات إنسانية معهم، ويحول دون هدايتهم إلى الحق، بالإضافة إلى أن الله تعالى ابتلى البشر بعضهم ببعض، ليمتحن أخلاقهم ومواقفهم. وبمقدار ما أراد من الناس أن يعرفوا ربّهم، ويعبدوه، أراد منهم أن يحسنوا التعامل مع الآخرين.

فالناس «إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق» ـ كما يقول الإمام علي عليه السلام[1] ـ وهذا يتطلب منّا حسن التعامل مع نظرائنا في الخلق، كما يتطلب منّا حسن التعامل مع إخوتنا في الدين.

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

## اجعل من عدوك صديقاً

الناس ثلاث: صديق، وعدوّ، ومن ليس هذا ولا ذاك فهو محايد.

فما هي الطريقة المثلى في التعامل مع كل فئة من هذه الفئات؟

قد يقول قائل: الجواب واضح. نعادي العدوّ، ونصادق الصديق، ونقف على الحياد مع المحايد.

ولكن أليس هذا هو ما يفعله «الهرّ» أيضاً، فهو يحارب كل هرّ عدوّ، ويجاري الهرّ الصديق، ويبقى على حياد مع من لا يؤذيه من الهررة؟

إن الإنسان يجب دوماً أن يسعى للتطور، خاصة فيما

يرتبط بعلاقاته مع الآخرين، فهو لابدّ أن يحاول أن يكسب عدوّه ليحطم بذلك مصدر العداء، وأن يسعى لجعل المحايد صديقاً، ويجعل من الصديق حليفاً.

يُذكر أن سيدة سمعت الرئيس الأمريكي الأسبق «إبراهام لنكولن» يثني على أعدائه أثناء الحرب الأهلية الأمريكية ويعطف عليهم ويجاملهم بالودّ، فسألته مستغربة: «أتخص بهذا الثناء الجميل أعداءً تسعى إلى تحطيمهم»؟!

فأجاب لنكولن: «أوَلستُ أحطّمهم يا سيدتي حين أجعلهم أصدقائي»؟!

إن من يتصور بأن أفضل طريق لتركيع العدوّ هو القضاء عليه مخطئ، فأفضل ألف مرّة من ذلك هو تحطيم ظاهرة العداء نفسها، من خلال تحويل العدوّ إلى محايد، وتحويل المحايد إلى صديق.

أليس ذلك ما فعله الإمام الباقرعليه السلام[1] حينما جاء إليه أحد أعدائه وصرخ في وجهه قائلاً: أنت بقر!

فقال الإمامعليه السلام: بل أنا باقر.

قال الرجل: أنت بقر.

فقال الإمامعليه السلام: أنا باقر.

وكرّر الرجل شتيمته للإمام للدفعة الثالثة، ولكن الإمام لم يرد عليه إلّا بنفس الجواب.

فقال الرجل ممتعضاً: أنت ابن الطباخة!

فردّ الإمامعليه السلام قائلاً: تلك مهنتها.

فقال الرجل: أنت ابن امرأة بذيئة اللسان.

فقال له الإمامعليه السلام: إن كانت كما تقول غفر الله لها، وإن لم تكن كما تقول، غفر الله لك.

وأمام هذا الحلم العظيم إنهار عداء الرجل، وأخذ

---

(١) راجع ألف باء الإسلام، للمؤلف، ج ٢.

يقبّل يد الإمام عليه السلام وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

إن حلم الإمام حطّم الحالة العدائية في نفس هذا الرجل. وحوّله من عدوّ إلى صديق.. وهذا هو النجاح الباهر!

يقول الشاعر:

وكنتُ إذا الصديق أراد غيظي
واشرقني على حنقٍ بريقي
غفرتُ ذنوبه وكظمتُ غيظي
مخافة أن أعيش بلا صديقِ[1]

تقول مؤلفة كتاب (أنت وقدراتك):

«فكّر بالصديق بدل التفكير بنفسك».

فإن الإنسان الناجح هو الذي يتفقد أصحابه ليزداد قرباً منهم.. فإن مرض أحدهم ذهب لعيادته في الدار أو

---

(١) الصداقة والصديق: ص ١٦٧.

المستشفى.. وإن سافر، أسرع إلى توديعه.. وإن حصلت له مشكلة واساه وطيّب خاطره.

ومع العدوّ فهو يحاول تقليل عدد الأعداء، لأن «ألف صديق وألف قليل ولا تتخذ عدوّاً وحداً والواحد كثير» كما يقول لقمان لابنه[1].

أما مع المحايدين فهو يحاول أن يحولهم إلى أصدقاء.

---

(١) الوسائل، ج١٢، ص١٦، باب استحباب استفادة الاخوان والأصدقاء والالفة، ح١٥٥٢٢.

## شروط البطولة

كل الناس يحبون البطولة ويعظّمون البطل، وما من إنسان إلّا ويرغب في قرارة نفسه أن يكون بطلاً، ويحلم بذلك اليوم الذي يأتي دوره لكي يحظى بالتبجيل الذي يحظى به الأبطال.

وعندما يتابع أحدنا أبطال الأفلام، فلربما تعتريه حالات من الانفعال مع مواقع هؤلاء في الحالات المختلفة؛ فإن كان البطل في موقع صعب فلربما يشعر المشاهد بالضيق، ولو كان في موقع الانتصار فلربما يشعر بالفرح..

فالمشاهد هنا يرى نفسه في موقع البطل، ويحاول أن يتقمص شخصيته، ويتأثر بطريقة تفكيره ومعالجته

للأمور، وهذا بالطبع نوع من التشبّه بالأبطال، ويدل أيضاً على الرغبة المستترة في كل إنسان ليقوم بدور بطولي.

ومع وجود الرغبة في البطولة عند جميع الناس تقريباً فإنك تجد أن الأبطال هم قلة في المجتمعات، فيا تُرى ما هو السرُّ في ذلك؟

الجواب: إن البطولة ليست موهبة يقررها الغيب للناس فيحرم البعض منها ويمنحها الآخرين.. وإنما هي من الفنون التي يمكن الوصول إليها، شأنها في ذلك شأن أي عمل آخر كالحرف والمهن والحصول على الدرجات العلمية..

غير أن المشكلة في الكثير من الناس أنهم يطمحون إلى البطولة ولكنهم يعملون بخلاف ما يطمحون، فهم ينشغلون بتوافه الحياة عن لبابها، بينما البطولة تتطلب فعل الأفضل في كل زمان ومكان.

كما أنها تتطلب أن تكون وقوراً في الصعاب، وصبوراً في البلاء.. والكثيرون يهتزون عند الوقائع، وينهارون أمام البلاء.

والبطولة تتطلب أن يكون الناس منك في راحة، وبدنك منك في تعب.. والناس يعملون بعكس ذلك.

والبطولة تدعوك لتحمل الأذى من الآخرين، وأن تكون صاحب القرار الشجاع. والناس لا يتحملون الأذى، وقراراتهم تنبع في الأغلب من جبنهم لا شجاعتهم.

وبكلمة فإن للبطولة شروطاً، ولا يمكن الوصول إليها من دون تلك الشروط، لكن الناس يريدونها بلا شروط.. وهذا ما لا يكون.

## كيف تختزن الهدوء؟

كما نقوم باقتناء التحفيّات والمجوهرات ونقوم بتخزينها في أكثر الأماكن أمناً، كذلك يمكننا أن نقوم بتخزين العادات الحسنة في نفوسنا.

لقد قمتُ بتجربة شخصية في هذا المجال، وثبت لي من خلالها أن ذلك أمر ممكن ونافع جداً. فعندما كان أولادي صغاراً، وبيتي صغيراً، كان المكان كالعادة ساحةً لمعركة مستمرة منذ الصباح الباكر وحتى وقت متأخر من الليل، أما الهدوء فلم يكن له أثر فيه.

ومع معارك الأولاد وضجيجهم كيف يتسنى للوالدين الخلود إلى الراحة؟

ولا شك أن فقدان الهدوء مدعاة لتوتر الأعصاب، وحدوث المشاكل في البيت..

هكذا كان وضعي في صيف عام ١٩٨٨ م حينما فكّرتُ للقيام بعملية «تخزين الهدوء في النفس» وذات صباح خرجت من المنزل إلى أقرب حديقة، وجلست في زاوية هادئة بعيدة عن صخب الناس، وبدأت القيام بالتجربة التالية:

في البداية قمت ببعض التمارين الرياضية البسيطة، ثم ألقيت ببدني فوق كرسي خشبي كان هناك، وأخذت أتنفس بهدوء وعمق، ومع كل شهيق وزفير كنت أوحي إلى نفسي بالهدوء وأخذت أخزّن منه ما أستطيع في نفسي.

ولم تكن هذه العملية مجرد إيحاء ذاتي، بل شعرت فعلاً كأنّ الهدوء يتركز في جسمي، كما يتركز الأوكسجين فيه.

وحينما قفلتُ راجعاً، كنت قد حملت معي إلى المنزل كمية لا بأس بها من راحة النفس، حيث شحنت أعصابي لمواجهة صخب الأطفال ومشاكلهم، وقد كنتُ بحالة أفضل بكثير من الأيام الماضية، وشعرت إنه بإمكاني أن أتحمل صخبهم ومشاكلهم بشكل أفضل من أي يوم آخر. كما شعرت بأنني أستطيع أن أزرع فيهم الهدوء أيضاً.

كانت تلك تجربتي الأُولى مع الهدوء، ولكن أعقبتها تجارب نفسية أخرى لتخزين أمور روحية أخرى، وجاءت كلها بنتائج جيدة.

إنها فعلاً تجربة رائدة وتستحق المبادرة.

## بدل ملامة النفس
## أصلح أخطاءك

هنالك صنفان من الناس: منهم من يخطأ ولا يبالي، ومَن هو على نقيض ذلك يخاف أن يخطأ فلا يُقدم على عمل، وإذا أخطأ جَلَدَ نفسه بسياط التأنيب والعتاب.

والصنف الأول؛ قد يكرر الخطأ عشر مرات، ويُلدغ من الجُحر الواحد عشرين مرة دون مبالات منه ولا اهتمام بعواقب الأمور، فهذا الصنف من الناس تكون خسارته بلا حساب.. لأن من لا يتعلم من أخطائه لن تتاح له الفرصة للتعلم.

أما الصنف الثاني؛ فهو غالباً لا يقوم بأي عمل خوفاً

من الانزلاق في الخطأ، ولو ارتكب خطأ لام نفسه وعاتبها إلى حد إيذائها وتحقيرها.

وبالطبع فإن كلا الصنفين على خطأ، أما المطلوب فهو أمر بين الأمرين: أي أن تتجنب الخطأ قبل وقوعه وأن لا تكرره إذا وقع، وقد تكون الملامة للنفس هنا مجدية ولكن على ألّا تتعدى حدودها المعقولة، ولا تكون عقبة أمام نشاط الإنسان وفاعليته في الحياة العامة.

ذلك إن الأسوأ من الخطأ هو أن نترك العمل خوفاً من الوقوع في الخطأ. أما أن نتوقع أن نكون كاملين في كل شيء فهو أمر غير وارد على الإطلاق، فالخطأ يمكن إصلاحه أما الإحجام عن العمل خوفاً من الزلات فلا معنى لإصلاحه، إذ ليس له وجود.

علينا إذن أن نجتهد قدر المستطاع، وأن نعمل بقدر

الإمكان، فإذا أصبنا في عملنا فإننا سوف نحصل على امتيازين، وإذا أخطأنا كان لنا امتياز واحد، أما الاعتزال عن العمل خشية من الوقوع في الخطأ فسيؤدي لضياع الفرص، فحتى العظماء الذين حققوا مكانة تاريخية كبرى فإن أعمالهم لم تخلُ من أخطاء، فكل البشر خطّاء وجلّ الذي لا يخطأ.. فلماذا تسعى لكي تكون أعمالك كاملة من دون أخطاء؟

وهنا قد تسأل: ما هي الخطوات اللازمة إذن؟

والجواب: أن تقوم بما يلي:

أولاً: الإقدام على العمل حتى مع احتمال ارتكابك للخطأ، فبدل أن تتجنب الأعمال لاحتمال الزلل فيها، قم بالعمل، وحاول أن تتجنب الخطأ.

ثانياً: أخذ العبرة من أخطائك الماضية ثم نسيانها تماماً، فربك غفور رحيم يتوب عليك ويغفر، فإذا

استوعبت الدرس من عصيانك، وأخذت العبرة من أخطائك، وتبت منها فلا داعي للخوف والقلق.

ثالثاً: القيام بتطوير عملك باستمرار، فلا تكرس الأخطاء من دون السعي لإصلاحها، فإذا حاولت أمراً وفشلت فيه، كرر المحاولة في اليوم الثاني مع التصميم على التعديل والإصلاح، لأن الفشل هو نتيجة لمقدمات خاطئة، وإذا لم تغيرها فإن النتيجة لن تكون لصالحك بالتأكيد.

رابعاً: التوقف عن توجيه الملامة إلى نفسك وتعنيفها، لأن اللّوم كما لا ينفع مع الآخرين، لا ينفع مع النفس أيضاً!

إن عليك دائماً أن تتقدم بثبات، وبدون سوء نيّة ولا خوف، بل بثقة قوية وعميقة بأنك ستقول الكلام المناسب، وتعمل الشيء المناسب، في الوقت

المناسب، بحيث يعطي النتيجة المناسبة. وبهذه الثقة بالنفس، والتصميم على اتخاذ الموقف الصحيح، وأداء العمل الصحيح تحرز النجاح وتتجنب الأخطاء.

وبكلمة فإن المطلوب: ليس ترك العمل، ولا تكرار الخطأ فيه، وإنما هو العمل مع السعي لتجنّب الأخطاء وهو ما يفعله كل الصالحين والناجحين في الحياة.

## نماذج من حكمة الله

لقد خلق الله سبحانه بعض أعضاء الإنسان؛ وكأنهما زوجان يكمّل أحدهما الثاني، مثل العينين، والأُذنين، واليدين، والرجلين، والكليتين، والرئتين، فإذا تلفت واحدة منهما قامت الثانية بوظائفهما معاً لمساعدة الجسم كي يتخطى أزمة التالفة.

فمثلاً من عميت عنده عين واحدة يمتلك ما مقداره ٧٠٪ من الرؤية التي يمتلكها ذو العينين، ومن عنده كلية واحدة، فإنها ستؤدي وظيفة الكليتين بشكل كامل، كذلك الأمر فيما يرتبط بالرئتين وباقي الأعضاء، وهذا من غريب خلق الله (جلّ وعلا)، حيث إن العضو المكرر

حينما يكون سليماً فهو ليس زائداً عن الحاجة، وعندما يكون تالفاً يقوم الثاني بعمل الاثنين.

وقلّما تجد هذه الخصيصة في المبتكرات التي يخترعها الإنسان، فالسيارة تسير بأربع عجلات، فإذا تلفت إحداها فلن تتمكن السيارة من السير على ثلاث عجلات، فلذلك يضطر أصحاب السيارات عادة أن يحملوا عجلة إضافية معهم ليتم استبدالها وقت الحاجة. ولكن تبقى هذه العجلة زائدة عن الحاجة ما لم يتم استبدالها عوضاً عن التالفة.

بينما العين الثانية، والأذن الثانية، والكلية الثانية ليست زوائد على الجسم البشري، كما هي العجلة في السيارة، فالإنسان يستخدم عينيه كلتيهما ويحتاج إليهما معاً.

وغالباً ما تكون الأعضاء التي خلقها الله مكررة معرضة للعطب المؤقت أو العطب الدائم؛ فكثيراً ما

تتعرض يد الإنسان للكسر، فتؤدي الثانية الدور اللازم، وذلك لتوفير الراحة لليد المكسورة ومنحها فرصة للشفاء.

جميع الأعضاء الزوجية تقوم بهذا الدور وتتعرض لمثل هذه المشاكل.. ولكن من النادر أن يتعرض اللسان ـ مثلاً ـ للتلف أو العطب، سواء بشكل مؤقت أو بشكل دائم، ومن النادر أيضاً أن يتعرض القلب للعطب، لأن تلف القلب يعني الموت بشكل أو بآخر.

صحيح؛ أن أمراض القلب كثيرة، إلّا أن القلب في مكان أمين ومحفوظ، كذلك الحال بالنسبة إلى الدماغ الذي له أكثر من حاجز لحمايته.

إذن.. كل عضو فيه الزوجية معرض للصدمة أو العطب المؤقت، أما العضو الذي لا ثاني له فهو قليلاً ما يتعرض للصدمات والخلل.

ولأن الإنسان هو أيضاً فريد من نوعه، فمن غير الممكن أن يستطيع أحد أن يبدّل العضو التالف في بدنه

وأن ينفخ فيه الروح، فإن أصيبت العين بآلة حادة أدت إلى تلفها فلا يمكن استبدالها بعين بلاستيكية، تقوم بوظيفتها السابقة.. وهكذا الأمر بالنسبة لليد والرجل، والكلية وغير ذلك..

سبحان الله!!

ما أعظمه وأقدره، وما أعجب خلقه، فكل ما في الكون عجيب وخارج عن قدرة غير الله، ليس على محاكاته بل على استيعابه أيضاً، والمغرور يقول شططاً على ربّه، مستكبراً بجهالته، بينما العالم العارف يقف مدهوشاً وإجلالاً للخالق جل اسمه.

انظروا إلى ألوان الفواكه: كالتفاح، والعنب، والبرتقال.. هذا التلوين المختلف كم هو رائع؟

لو أن فنّاناً من الرسّامين أراد أن يرسم لوحةً لا روح فيها ولا طعم ولا فيتامينات كما في الفواكه لاحتاج الأمر معه عدة أيام من المجهود لرسم اللون الطبيعي

للبرتقالة، وقد يُوفَّق في ذلك أو لا يُوفَّق، وعندما يُوفَّق يكون قد «حاكى» ما خلقه الباري في الصورة فقط.

* * *

تأملوا مثالاً آخر لقدرة الله تعالى، وحكمته. حبة البطيخ الصغيرة التي تطلق من داخلها طاقة توازي وزنها مئتي ألف مرّة.

والبعض يتصور أن قدرة الإنسان تفوق قدرات بقية الكائنات، فهل باستطاعة هذا الإنسان أن يطلق من داخله من الطاقة ما يتجاوز وزنه مئتي ألف مرّة؟

هل تدري ما الذي يعني ذلك؟

إنه يعني أن يستطيع كل فرد واحد من البشر أن يبني بيديه بناية طولها (٤٠٠) كليومتراً تقريباً.

ثمّ تأمل تكوين الغلاف الخارجي لحبة البطيخ، وكيف تلونت تلك الطبقة البيضاء التي تغلف قلبها الأحمر المحشوّ بذوراً سوداء بما يعجز الفن البشري عن محاكاته؟

إنها قدرة الله (عزّ وجلّ) التي وضعت في حبة بطيخ واحدة تلك الطاقة الهائلة لتستخرج من الأرض ما يتجاوز وزنها مئتي ألف مرة..

وسبحانه الذي لوّنها بهذا الشكل الجميل..

وسبحان الله، الذي بعد ذلك خلق الموت والفناء وجعل كل ما في الكون من مواد وعناصر تتلاشى فلا يبقى إلّا وجهه الكريم ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

ألا ترى كيف أن الإلكترون الموجب يتصادم مع الإلكترون السالب في بعض الأحيان، فينعدم كلاهما ويفنيان وهذا ما يسمّى بانعدام المادة وموتها.

إن الله تعالى يقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[2].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٢) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.

سبحان من جعل الموت دليلاً على قدرته، كما جعل الحياة دليلاً عليها.

وسبحان من جعل أساس الموجودات الطاقات والقوى، وجعل تأثير الطاقة أكثر كلّما قلّت مادّتها.

سبحان من يرى، ولا يُرى، وهو بالمنظر الأعلى.
سبحان الحكيم العليم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

## تأمل العوالم

قلت له: لنسبق الزمن وننظر إلى العوالم، ألا تنظر إلى الآخرة؟

قال: وهل يمكننا أن نراها، أليست الآخرة بعيدة؟

قلت: أبداً، إنها ليست بعيدة حتماً، فأنت وهي كقاب قوسين أو أدنى.

قال: كيف ذلك؟

قلت: أُنظر، مهما كانت آمالك عريضة فإن عمرك قصير، ولا يسمح لك بأن تحقق كل طموحاتك في الحياة، ولكن تفكيرك الإنساني يجرّك إلى أمل بعيد تتصور فيه أنك خالد في هذه الدنيا وإن الحياة باقية من

غير زوال.. وإن كنت ترى بعقلك إنها لم تبق للذين سبقوك.

قال: ولماذا لا أكون مستثنى من هذه القاعدة، صحيح أن أبي قد مات، ولكن لماذا لا أبقى أنا؟ وصحيح أنه مات أخي، ولكنني مختلف عنه؟

قلت: ألم يمت زملاؤك أيضاً؟

قال: ومن قال إنني سألحق بهم؟

قلت: أُنظر يا أخي إن الدنيا والعمر هما طول الزمن الأرضي، وأما الآخرة فلا حدود لطول زمانها، إلّا أنها قريبة من الإنسان كقرب اللحد إلى الميت، فلا فرار من الموت ولا هروب من العاقبة، والعاقل هو من لا يهمل آخرته لدنياه، ولا يفرِّط بهما معاً، وإنما يعمل لهما جميعاً.

وأضفت: إن الحياة مثل دولاب نصفه في النور ونصفه الثاني في الظلام، وهو يدور من دون إرادة من

البشر.. النصف الغائب كالرجل الغائب لا يدوم غيابه ولا يطول لأنه موجود في النصف الثاني من الليل المظلم الذي سرعان ما سيلحقه النور، نحن لا نراه ولكنه يرى نفسه، ويرى الذين سبقوه، وعندما تعود الساعة إلى نصف النهار ويجتمع الناس كافة سترى الجميع يواجهون أعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وما أقرب الموت إلى الإنسان وما أبعد الإنسان عن التفكير فيه.

لقد جُبِل الإنسان على الضعف فمنه وُلد وعليه يموت، وبين الولادة والموت هو أسير النقصان والعجز، ولا ينفك هذا النقص عنه إلّا بالتقرب إلى الله سبحانه وطلب العون منه.

قال: لكن الإنسان لا يشعر عادة بالعجز؟

قلت: من أدلة العجز عند الإنسان هو شعوره بالوحدة والوحشة عند التفرّد، وهذه صفة الجزئي الذي

لا يتكامل إلّا بعد أن تتحد أجزاؤه الأخرى، فإذا ضلّ الطريق في الصحراء، شعر أنه وحيد والكون من حوله فارغ، وإذا سار في ظلام دامس شعر أنّ الظلام سيهجم عليه بين الحين والآخر.

إن هذا الخوف من الوحدة لا يمكن علاجه إلّا بالإيمان بالله، والإحساس بحضوره في كل آن، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (1).

الإنسان يخاف الوحدة ولكنه يولد معها ويموت معها، ويخاطبه القبر قائلاً: أنا بيت الوحدة.. أنا بيت الوحشة!

قال: ماذا نفعل حتى لا تلفنا الوحشة؟

قلت: أن نسير في الطريق المطمئن المؤدي إلى النفس المطمئنة التي يخاطبها ربها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ

---

(1) سورة الحديد، الآية: ٥.

ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾[1].

والاطمئنان هنا لا يحصل إلّا بالعمل الصالح، لأنه إراحة للضمير وسَكَنٌ للنفس، والإنسان بحد ذاته لا يعرف قيمة العمل الصالح إلّا بمقدار ما يعرف من ظاهر الحياة الدنيا، حيث لا يحصل المؤمنون على جزاء أعمالهم فيها وإنما في عالم الآخرة.

إن العمل الصالح يا صاحبي، هو أنيس المؤمنين في دنياهم، وهو الحبل الرابط بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، فهم لذلك لا يشعرون بالوحدة لأن الله معهم في كل وقت، من لحظة الولادة إلى لحظة الوفاة، وبعد ذلك في عالم البرزخ والقيامة.

كل الناس يموتون ويُحشرون فرادى، سواء السادة أو العبيد، الحكام أو المحكومون، ولا يأخذون معهم غير أعمالهم، مجردين من كل قواهم الدنيوية، فالملوك

---

(١) سورة الفجر، الآيتان: ٢٧ ـ ٢٨.

لا يأخذون جيوشهم ولا أسلحتهم الفتاكة معهم إلى القبر، وسيتخلى عنهم أعوانهم وأقرب المقربين إليهم، فهم سيكونون بمفردهم هناك أسراء أعمالهم.. فأهل الخير سيكونون قرناء الخير، وأهل الشر سيكونون قرناء الشر.

فالوحشة الحقيقية هي وحشة الباطل التي يشعر الإنسان معها بالوحدة الموحشة، مقطوع الجذور والأصول، لا يجد من يتكل عليه في الشدائد والملمّات... ويوم الندم الأكبر ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾[1].

إذن.. الوحشة هي شعور نابع من مقاربة الشر، كما أن الاطمئنان شعور نابع من مقاربة الخير، وهذه عوالم متضادة متقاربة: متضادة في حقيقتها ومتقاربة في زمنها، فالفاصلة الزمنية التي تفصلنا عن العوالم ضئيلة جداً!

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٧.

قال: هل لك أن تذكر عملاً واحداً يمكنني أن أتسلى به في الوحدة؟

قلت: من أهم الأعمال الصالحة قراءة القرآن الكريم، فقد سُئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل عند الله؟

فقال: «قراءة القرآن، وأنت تموت ولسانك رطب من ذكر الله»[1].

وقد روى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي ﷺ:

«قراءة القرآن في الصلاة أفضل من قراءة القرآن في غير الصلاة، وقراءة القرآن في غير الصلاة أفضل من ذكر الله تعالى، وذكر الله ــ تعالى ــ أفضل من الصدقة، والصدقة أفضل من الصيام، والصيام جُنّة من النار»[2].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٤٩.

(٢) المصدر، ج ٩٢، ص ٢٠.

وروي عن النبي ﷺ: «إذا أردتم عيش السعداء، وموت الشهداء، والنجاة يوم الحسرة، والظل يوم الحرور، والهدى يوم الضلالة، فادرسوا القرآن، فإنه كلام الرحمن، وحرز من الشيطان، ورجحان في الميزان»[1].

(١) المصدر، ج ٩٢، ص ١٩.

## تحمّل المشاكل: ضريبة الدور الكبير

كلّما يكبر المرء، ويعظم دوره، كلما تزداد همومه ومشاكله، تماماً كما أنه بمقدار ما يكبر الطفل، تشتد عضلاته، وتزداد قدراته الجسمية والفكرية والروحية.

من هنا يختلف دور الإنسان في الحياة من شخص لآخر، تبعاً للمركز الذي يشغله، والمكانة التي يتبوّءها. فلربما يتفوّه شخص بسيط بكلمة، فلا تؤثر إلّا على مستوى عائلته، ولكن ذات الكلمة عندما يتفوّه بها رئيس دولة، فإنها تؤثر على مستوى تلك الدولة، ولربما غيّرت معادلات وقلّبت موازين.

فالشخص الذي يتبوّأ مركزاً مرموقاً في المجتمع،

تكون قدراته كبيرة، وتبعاً لذلك تكون مسؤولياته عظيمة، وحسابه يوم الجزاء أعظم.

يُذكر أن بهلول العاقل كان يسعى مع الناس بين الصفاء والمروة، وكانوا يبكون وينتحبون، فرأى هارون الرشيد وهو يبكي لوحده، فقال له بهلول: أتعلم يا هارون لِمَ يبكي هؤلاء الناس؟

فقال هارون: لا.

فقال بهلول: «كل واحد منهم يبكي لنجاة نفسه، لأنه مسؤول عنها. أما أنت فمسؤول عن نفسك، وعن كل واحد من هؤلاء لأنك رئيسهم».

ثم إنه بمقدار ما تزداد قدرات الإنسان، فإن مشاكله أيضاً تكبر معه، وإذا سقط فإن سقطته تكون خطيرة كالذي يسقط من شاهق، فكلّما كان المكان أرفع، كان السقوط منه أخطر، وعذاب الكبير إذا عصى الله يكون يوم القيامة عسيراً وكبيراً.

وبالعكس بالنسبة إلى الصالحين، فكلّما يعظم دورهم يعظم ثوابهم، لأنّ «الأجر على قدر المشقة» وكبار الصالحين يتحملون عظائم الأمور.

فمثلاً الرّسول الأعظمﷺ حينما بُعث بالرسالة، فهو من جهة قد كبر دوره وعظم، ومن جهة أخرى انهالت عليه المشاكل حتى قال «ما أوذي نبيّ بمثلما أوذيت».

ذلك لأنّ رسالته هي أعظم الرسالات السماوية بل هي جامعة لكل الرسالات.

وعظمة الرسولﷺ تكمن في أنه تحمّل كل تلك المشاكل والصعاب، دونما كلل أو ملل، وأنه حمل على أكتافه مشعل الهداية، التي يظل نورها متوهجاً إلى قيام الساعة.

وكما يصدق ذلك بالنسبة إلى دور الفرد فإنه يصدق بالنسبة إلى دور التجمعات، فالفرد الواحد له دور بحجمه ومشاكل بحجمه أيضاً، وإذا أصبح الفرد جزءاً

من جماعة فهو بمقدار ما يزداد دوره، تزداد مشاكله. لأنّ الانتماء إلى الجماعة له ضريبته وهي زيادة المشاكل والهموم. ولكن مع زيادة ذلك يزداد دور الفرد داخل المجموعة، ودور المجموعة داخل المجتمع.

وعلى كل حال لا بديل عن انخراط الفرد في المجموع، لأن «الاثنين خير من الواحد، والثلاثة خير من الاثنين» ـ كما يقول الرسول ﷺ ـ.

فعندما تنتمي إلى جماعة أو تنظيم، فإن قوّتهم ستضم إلى قوّتك، وعلمهم سيلتقي مع علمك، وعقلهم سيشاور عقلك. أما إذا خسرت هذا الانتماء، فإنّ خسارتك ستكون عظيمة لا يسدُّها شيء.

ولا ريب أن الفرد الذي يتحرر من إسار الفردانية وينتقل إلى واحة الجماعة، فإن النجاح سيكون حليفه في شتى المجالات. لأن قوة الجماعة ستُضاف إلى قوّته،

فيكون على مواجهة الأعداء أقدر، وعلى مواكبة تطورات العصر أكثر.

يقول كيسنجر، وزير خارجية أمريكا الأسبق: «إن الولايات المتحدة الأمريكية تتحرك في دائرة وسيعة جداً. ليس في نطاق حدودها فحسب، بل يتعدى ذلك إلى سائر نقاط العالم، ويشمل حتى الفضاء والمجرّات السماوية؛ حيث إن الولايات المتحدة الأمريكية لديها أكثر من مليون ونصف من الجنود الموزعين خارج حدودها، وتمدّ حرب النجوم بشتى وسائل الدعم المادي والتكنلوجي، ولأنها دولة كبيرة، فإن مشاكلها على قدر حجمها».

وهذا أمر طبيعي، فكلما تزداد قوة الجماعة تزداد مشاكلها أيضاً.

غير أن ذلك أمر لا مفرّ منه. فمن يريد أكثر فإن عليه أن يدفع ثمناً أكبر..

وهذا يعني أنّ كل جماعة تحاول أن تصبح عظيمة، فإن على أفرادها أن يتحملوا المشاكل الكبيرة.

وكذلك في كل مجالات الحياة، فعندما تكبر، فإن مشاكلك تكبر معك، فلابدّ أن يزداد حلمك وصبرك وحذرك في الحياة.

# العقل الجمعي
# والتعاون المشترك

لا أحد يشكُ في أنّ العمل الفردي لا يعطي نفعاً كثيراً ولا يؤدي إلى نتيجة كبيرة!.

ولا أحد يساوره الريب في أن العمل الجمعي شرط ضروري للنجاح على المستوى الفردي كما أنه ضروري للانبعاث الحضاري على مستوى الأمم.

ولهذا فليس من الغريب أن دولةً كالهند، وبالرغم من أعداد نفوسها الهائلة وأرضها الخصبة، إلّا أنهم يعيشون الكثير من المشاكل وفي مقدمتها الفقر المدقع. في حين أن اليابان، وبالرغم من عددهم القليل بالنسبة

إلى الهند، فنفوس اليابانيين هي فقط خمسة وعشرون مليون نسمة وأرضهم بركانية، بيد أنهم غزو العالم مالياً وصناعياً، والسبب وراء ذلك هو أن الهنود بمجملهم يعملون كأفراد، واليابانيون يعملون كجماعات.

إن العمل الفردي لم يكن في السابق يعطي النتائج بالمستوى المطلوب، فكيف في عصر التكتلات والأحزاب والجماعات. حيث احتدام الصراع الحضاري، ونشوب الحروب المتعددة للسيطرة على منابع الثروة في العالم. وواضح أن لا أحد يخرج منتصراً من هذا الصراع، ولا غانماً من هذه الأزمات، إلّا إذا أقام مجموعة من التحالفات، وعمل بروح جماعية مع مختلف الأطياف الداخلية والخارجية على حد سواء.

إن الولايات المتحدة الأمريكية اليوم هي أقوى وأغنى دولة على هذه الأرض، ولكنها تبحث عن دولة صغيرة تسمى (هندوراس) لتدخل معها في تحالف استراتيجي. وتوقّع مع دولة صغيرة هنا، ودولة أخرى

هناك على اتفاقيات عسكرية وثقافية.

إنّ أمريكا تدرك جيداً بأن قوّتها تكمن في توسيع دائرة تحالفاتها مع دول العالم، فلديها أكثر من (٢٠٠٠) قاعدة عسكرية خارج حدودها، وهي لا تزال تبحث عن تحالفات جديدة، وقواعد جديدة.

أما شعوبنا، وللأسف، فهي أسرع الشعوب إلى التمحور حول الذات، وإقامة مشاريع وأعمال فردية.

يقول أحد المفكرين: «ما رأيتُ مثل الشعوب العربية، إنهم أقوياء كأفراد، وضعفاء كجماعة».

ومشكلة هذا الداء الوبيل أن الفرد عندنا لا يشعر بالرغبة في إنجاح الآخرين كما يشعر بالرغبة في إنجاح نفسه، ولذلك فإنه إذا نجح، فإن نجاحه يكون على مستوى فرد وليس على مستوى جماعة، ناهيك عن أن الشعوب التي تتنكب عن العمل الجماعي، فإنها سرعان ما تنحدر نحو السلبية والوهن والضعف، مما يجعلها

أرضاً خصبة لنشوب الخلافات فيما بينها، حيث تفسد قلوب أجيال متتالية حتى تصبح الأنانية عقدتهم الكبرى.

إن على الذين يريدون النجاح أن يتجاوزوا خلافاتهم الجزئية حتى يلحقوا بالركب ويصنعوا حضارتهم، لأنه لكلّ نجاح أسبابه، ولكل حضارة مقوماتها، كما أن لكل فشل عوامله، ولكل تخلف أسبابه.

فإذا رأينا التخلّف في بلادنا، فلابدّ أن نتساءل أين موقع الخلل؟ وما هو النقص الذي نعاني منه؟

فهل المشكلة عندنا في عدم وجود المعادن، أو أنه فقدان الأراضي الخصبة، أو قلة العدد؟

لقد خصّنا الله سبحانه وتعالى بكل هذه النعم، إذن أين الخلل؟

أليس هو في الحالة النفسية؟ حيث ترى بأن هذا يتكبّر على ذاك، وذاك يحقد على هذا، وثالث يتحامل على آخر وهكذا، ليس لميّزة يمتلكها أحد على غيره، بل

لأمراض نفسية كالأنانية، وحب الذات، والبغضاء، والحسد وما شابه ذلك.

ولا مخرج من هذا المأزق إلّا بتغيير النفوس، وتزكيتها من العقد النفسية، حتى نكون بمستوى عطاء الله، لأنه كما أنّ الله لا يرضى لنا أن نؤتي السفهاء أموالنا، فإنه لا يرضى لنفسه بأن يؤتي النجاح والتوفيق لسفهاء النفوس من الناس، وأول علامة السفاهة هو العجز عن التعاون مع الآخرين، وعدم القدرة على تجاوز الصفات السيئة و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

## منتجون أم مستهلكون؟

هل نحن منتجون أم مستهلكون؟

وما هي حدود الإنتاج، وما هي حدود الاستهلاك؟

وأيهما يُقدّم على الآخر؟

هناك من الناس من اكتفى في دنياه أن يكون مستهلكاً لما ينتجه الآخرون، وهناك من لا يرضى إلّا بأن يكون منتجاً أكثر مما يكون مستهلكاً، وثمة نوع ثالث لا هو منتج ولا هو مستهلك. وهذا هو ميّت الأحياء.

صحيح أنّ الله سبحانه وتعالى قد خلقنا من بطون أُمهاتنا لا نعلم شيئاً.

وصحيح أيضاً أن الذي يريد الإنتاج لابدّ له أن يمرّ

بمراحل الاستهلاك، إلّا أنّ الله - جلّ شأنه - قد زوّد الإنسان بالعقل السليم، ووهب له السمع والأبصار والأفئدة، وفتح أمامه آفاق الطموح والتطور والرقي والازدهار.. وبهذه المواهب الإلهيّة يستطيع كل شخص أن يرتقي سلّم المعرفة، ليصبح في مصاف العظماء، أما إذا أهمل تلك المواهب فإنه سوف يصبح مخلوقاً معطَّل الفكر، معدوم الإرادة، لا خير فيه، ولا فائدة ترجى منه.

قد يظن البعض أن مسألة الإنتاج والاستهلاك تخصُّ القضايا الاقتصادية وحدها، بيد إنّ الأمر يتعدى ذلك ويشمل كافة جوانب الحياة. ففي الجانب الثقافي هناك من ينتج الثقافة، إما بالتفكير أو بالتأليف أو بالكتابة، وهناك من يستهلك تلك الثقافة، حيث يقرأ ما يكتبه الآخرون، ولكنه لا ينتج ولا يفكر في الإنتاج. وفي الجانب الأدبي تجد من ينتج، ومن يستهلك. فمثلاً بعض النقّاد ينتظر على الدوام أن يقوم شخص آخر بإنتاج

قصيدة كي ينتقدها، ولكنه لا يفكر، ولو مرة واحدة، في أن يقوم هو بصناعة الشعر حتى بنظم قصيدة واحدة.

بالطبع لا يمكن أن نطالب الإنسان بأن يكون منتجاً فحسب، بيد أنه قادر على أن يكون إنتاجه أضعاف استهلاكه. كما هو الأمر مع الأنبياء والأئمة والعظماء والزهّاد، فإن مقدار استهلاك هؤلاء أقل بكثير من إنتاجهم. وهذا هو أرقى النماذج البشرية وأنفعها للمجتمعات. وثمة نموذج آخر وهو يستهلك ليحصل على طاقة تمكنه من الإنتاج. يأكل ليكتب، فينتج فكراً وثقافة ومواقف. وهناك من يستهلك الكثير، ولكن لا إنتاج لديه، كالذي يخلّفه والده في متجره، فإذا كان يبيع كل يوم بنصف دينار، فإنه يأكل بعده بدينار. فما حصل عليه يأكله وزيادة. وهذا هو أدنى النماذج البشرية وأضرّها على المجتمعات.

وهناك مسألة من الأهمية بمكان، وهي الحالة «الاكتسابية» والسعي في الحصول على العلوم

والمعلومات والتجارب، فمن الناحية الثقافية مثلاً لا يستطيع أحد أن يصل إلى الإنتاج إلّا بعد أن يقوم بعمل القراءة والكتابة، ومن ثم يتدرّج حتى يصبح هو الآخر منتجاً. أما أن يقول قائل: أريد أن أكون مبدعاً في المجال الفلاني، من دون أن يقطع المراحل الطبيعية في ذلك فهو محال.

لقد التقيت ببعض الشباب الذين كانوا يدرسون عند أحد الأساتذة الذي طالبهم بأن يكونوا منذ البداية «مبدعين» فأصبحت تلك الفكرة «عقدة» عندهم، فكلما أرادوا الكتابة أركسوا فيها، وقالوا لأنفسهم: إنّ هذا ليس إبداعاً. ومن ثم توقفوا عن الكتابة والتأليف.

فقلت لهم: أنتم مخطئون، إذ لابدّ أن تكونوا تلاميذ أولاً، ومن ثم مبدعين.

ولما كان التأليف عبارة عن الاستفادة من الآخرين والأخذ من كل بحر قطرة، ومن كل كتاب فكرة، ومن

كل بستان زهرة، فبادي ذي بدء لابدّ أن يُغرق من يريد التأليف نفسه في المطالعة والدراسة ومراجعة آراء الآخرين وأفكارهم وأن يكون تلميذاً جيداً.

ولكن بشرط أن لا يبقى تلميذاً طوال عمره، مثل ذلك الذي قرر أن يكون تلميذاً في الحوزة العلمية لسبعين عاماً، ينتقل من أستاذ لآخر. فقيمة العلم عند مثل هذا الرجل ليست في نشره وتطويره والعمل به، وإنما في استهلاكه فقط.

فالتلمذة مطلوبة، ولكن بقدر معيّن لا أن تمتد إلى نهاية الحياة.

وكما في التأليف، كذلك في الخطابة، فالذي يرغب في أن يكون خطيباً، فإن عليه أن يقلّد في البدء الخطباء الجيدين، ولكن بعد التمرّس والإجادة، عليه أن يستقل في أسلوبه ــ أي أن يأخذ ما بناه الآخرون، ومن ثم يبني عليه ــ لا أن يستظل تحت بناء الآخرين إلى الأبد،

ويكرر إنتاج الآخرين ويردده كالببغاء، من دون أن يضيف إليه أشياء.

وبكلمة فإن الناجح في الحياة، هو الذي يستهلك من الآخرين أفضل ما عندهم لينتج بعد ذلك أفضل مما أخذ. تماماً كما يعمل النحل حيث يأخذ من الورود أفضل ما فيها، وهو الرحيق، لينتج بعد ذلك أفضل ما يستطيع وهو العسل.

## اعتماد الرفق مع الآخرين

دخل بعض اليهود على رسول الله ﷺ، فقال أول الدّاخلين: السّامُ عليك يا محمّد.

فقال له رسول الله ﷺ: وعليك.

وقال الثاني والثالث نفس ما قاله الأول: السّامُ عليك يا محمّد.

وكان جواب النبي ﷺ نفسه الذي قاله للأوّل: وعليك.

وكانت عائشة حاضرة في المجلس وسمعت ما قالوه، فرفعت صوتها قائلة: وعليكم اللعنةُ والعذابُ، يا إخوان القِرَدة والخنازير.

فأسكتها رسول الله حتى إذا خرج اليهودُ من عنده.

قال لها:

يا عائشة! إنّ الرفق لا يوضع على شيءٍ إلّا زانَه ولا يُرفع عن شيءٍ إلّا شانَه، وإنّ الله يحب الرفق في كل شيء. إنّهم قالوا: السّامُ عليك، فقلت لهم: وعليكم، فهي واحدةٌ بواحدة[1].

* * *

كانت تلك طريقةُ رسول الله ﷺ في التعامل مع من يتفوّهُ بكلامٍ قبيح كهذا وهو من الأعداء، فكيف بمن لا يقول مثل ذلك، وليس عدوّاً؟

إن الرفق مطلوب في العلاقة مع كل الناس، لأن من يستعمل الرفق يحلُّ مشاكله بدون خسائر. بينما الذي يستخدم العنف ربما يحلُّ مشكلته، ولكنه حتماً سوف يتحمل بعض الخسائر.

---

(١) الوسائل، ج١٢، ص٧٨، ح١٥٦٨٩.

هناك مثل فارسي يقول: «العقدةُ التي تستطيع حلَّها باليد لا يجوزُ استخدام الأسنانِ لحلِّها».

حقاً إن أيّ عملٍ تكونُ قادراً على إنجازه عن طريق اللّين فهو الأفضل لك. لا سيما حينما يكونُ مرتبطاً بزملائك، أو أولادك، أو أهلك.

تُرى.. لو إنك طلبتَ من إبنكَ أن يأتي إليك بكأسٍ من الماء، واستخدمت معه الاحترام والأدب، فإنه سيأتيك بالماء وهو يشعر بالرضا والارتياح.

ولكنك لو رفعت صوتك عليه، واستخدمت معه كلاماً غير لائق، فهو أيضاً سيأتيك بالماء، ولكنه سيكون مقهوراً وفي قلبه شيء عليك.

صحيح أن الوصول إلى الأهداف يتطلب أحياناً الشدّة. لكنّ ذلك «استثناء» ولا يجوز أن يتحول إلى «قاعدة»، خاصة في التعامل مع الأحبة والأصدقاء.

ولنا في رسول الله ﷺ خير أُسوة وقدوة. فالنبي ﷺ كان يؤسس أمّة، ويقيمُ دولة، وينشرُ ديناً، ومع ذلك فإنه كان يستخدمُ الرِّفق في كل مواقفه ويتصرف متحكِّماً في غضبه وسخطه لا محكوماً بهما، حتى ذكر المؤرخون أنّ أعرابياً جاء إليه وجذب عباءته حتى أثّرت في رقبته المباركة، وصرخَ في وجه النبي ﷺ قائلاً: «يا محمد! أعطني من مال الله، فإنه ليس لك ولا لأبيك.

فأراد بعض الأصحاب الفتك به، لكن النبي ﷺ منعهم من ذلك، وقال للأعرابي: إي والله، إن هذا المال ليس لي ولا لأبي»[1].

ثم أعطاهُ ما يحتاجهُ منه.. ودفع هذا الرفق النبويّ بالأعرابي إلى أن يعتذرَ من النبي ﷺ ويتعلّم منه درساً في حسن التعامل.

* * *

---

(١) مكارم الأخلاق، ص١٧.

إن الإنسان بطبعه عجولٌ جَزوع، والشيطان يستغل عجله وجزعه هذا، كما يستغل غضبه وحسده، وبقية ما فيه من أضداد الفضائل، ويدفع به إلى استخدام العنف والشدّة والكلمات النابية وأحياناً السّب والشتم.

وبذلك فإن إبليس يوقع بين بني آدم، ويحاول أن يجعل العنف قاعدة للتعامل فيما بينهم، لكننا مأمورون باللّين والرفق، بل بالتذلل لبعضنا بعضاً.

يقول ربُّنا عزّ وجلّ في وصف المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. فالمؤمن يرضى من أخيه المؤمن حتى بالذل، ولكنه لا يستخدم العنف معه.

إن المرء في أتون العمل ومعترك الحياة، قد يواجه من الزملاء بعض المواقف غير السديدة، أو يسمع منهم بعض الكلمات غير الرشيدة، ولكنه يجب أن يكون فوق

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

الترهات وأن يضع نصب عينيه أنّ اللين في مواجهة ذلك أكثر نفعاً من الشدة، فإذا فعل ذلك استفاد مرتين:

مرّة، حينما ردَّ السيئة بالحسنة.

ومرّة، حينما هانت عليه مواقف الآخرين، مهما كانت غير سديدة.

وفي الحقيقة فإن الكلمات النابية من الأصدقاء والزملاء، والمواقف غير اللائقة يجب أن لا تفسد علينا صداقاتنا، ومواقفنا، وتخرّب علينا نفوسنا.

إذ لا يجوز للرجال أن يتصرفوا مثل الأطفال في المدارس الإبتدائية، حيث ينشبُ بينهم الصّراع والسّب والضربُ لأتفه الأسباب وأوهنها.

يقول الإمام علي (سلام الله عليه): «لا تُحرّكوا سيوفكم في هوى ألسنتكم»[1].

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٠.

ويقصد بذلك أن الكلمات لا يجوز أن تكون سبباً لإراقة الدماء واستخدام السلاح.

إن البعض يحرّك سيفه في وجه الآخرين، لا لشيء إلّا ليُثبتَ ما قاله، أو ليردَّ على ما قيل فيه.

فكم من أُناس قالوا كلاماً ثم لم يتراجعوا عنه، وكأنه قرآن منـزل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم تطورت الأمور بسبب ذلك إلى وقوع الصراع والعِراك بينهم وبين الناس.

المهم أن نعتمد على الرفق في كل أمورنا، خاصة بين الأب وأولاده، وبين الزوج وزوجته، وبين الصديق وزملائه. لأننا أحياناً نميل إلى استخدام الشدة حينما لا حاجة إلى ذلك، فمثلاً قد يأمر الأب ابنه بعملٍ ما، ثم يتخلف الابن عن تنفيذ ذلك، فيلجأ الأب إلى عقاب ابنه وهو قد يكون على حق، إلّا أن ذلك يُسبّب انهيار

شخصية الابن، وربما يزرع عقدة الحقارة في نفسه.

لقد جيء ذات يوم بطفل إلى رسول الله ﷺ ليبارك له، فبال الطفل في حُضن النبي ﷺ. فرفع أحد أبويه يده على الطفل ليضربه، فمنعه النبي ﷺ وقال له: إنّ ثوبي هذا يُطهّره الماء، ولكن ماذا يطهّر نفس هذا الطفل؟

ولابدّ هنا من التأكيد على أن الرفق يختلف عن الاستسلام، أو السكوت على الخطأ.

فالنبي ﷺ في مواجهة اليهود الذين قالوا له: «السّامُ عليك»، لم يسكت بل ردّ عليهم، لكن ردّه جاء مصحوباً بالرفق، حيث قال لهم: «وعليكم».

ولولا هذا الرفق الذي لازم عمل النبي ﷺ لم يكن يستطيع أن يؤسس دولة، ويقيم حضارة، وينشر ديناً، يقول ربُّنا: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ .

من هنا لم يكن المؤرخ المعروف «ويل ديورانت» صاحب كتاب «قصة الحضارة» قد ذهب بعيداً عندما قال: «إنّ ما أنجزه رسول الإسلام لم ينجزه أحد في التاريخ كلّه، حيث استطاع في جيلٍ واحد أن ينتصر في قرابة مئة معركة، وأن يؤسس خلال قرنٍ واحد دولة كبرى، ويترك أثراً خالداً، ولا يزالُ بيرقُهُ يُرفرف على نصف الكرة الأرضية».

وفضل كل هذا يعود إلى اعتماد الرفق من قبل رسول الله ﷺ في جميع أعماله. وهذا ما يجب أن نفعله نحن أيضاً.

# ضرورة المشاورة

من الممكن أن يعيش الإنسان وحده في غابة من الغابات من دون أن يتعامل مع أحد. لكنه حينئذٍ سيعيش حياة الحيوانات. أما إذا أراد أن يعيش إنساناً فلابدّ أن يعرف أمرين:

الأول: أنه بحاجة إلى الآخرين، ولابدّ أن يتعاون معهم.

والثاني: أنه بحاجةٍ إلى أن يستشير غيره في أموره.

إن كلمة «المشورة» هي صغيرة في لفظها، ولكنها كبيرة في معناها، ومغزاها، ونتائجها.

فمن أبرز مقوّمات الشعوب المتقدمة أنها مجتمعات

تقوم على قاعدة العمل الجمعي، والاستشارة فيما بين رجالها.

والحديث الشريف الذي يقول: «ما خابَ من استخار وما ندم من استشار»[1] يؤكد هذه الحقيقة.

فالجماعة التي تعتمد على الاستشارة بشكل متواصل هم أقدر من غيرهم في درأ الأخطار، وتحقيق الانجازات الكبرى.

إن الفرد الذي يرفض استشارة الآخرين هو أناني بطبعه وغير صالح، وكذلك الأمر مع المجتمع الذي لا يستشير أفرادُه فهو مجتمع غير صالح، ولا يمكن أن ينجح.

ولا تكفي هنا النيّة والأُمنيّة، فالجميع يتمنى النجاح. وربما تكون نيّة الفرد صالحة، ولكن ذلك لا يكفي. بل لابدّ أن تكون عاداته وتقاليده أيضاً صالحة. ولا يمكن

---

(١) مصباح الكفعمي، ص٣٩٢.

اعتبار الأنانية والسلوك المنفرد من الصلاح. خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ البديل عن الاستشارة هو الاستبداد، لأن كل من يرفض المشورة مع الآخرين والأخذ بآرائهم، يقع في مطب الاستبداد.

والاستبداد يجرُّ إلى موبقات كثيرة أسهلها وأهونها موبقة الخصام، والانتقام، والحرب.

من هنا لابدّ أن تكون المشورة جزءاً من سياسة الفرد والأمة، وقانوناً في إدارة المجتمع، وإلّا فإن الفشل سيكون حتمياً، لأن الله عزّوجلّ وزّع العقول على الناس، ومن يستشير الآخرين فهو يستفيد من عقولهم، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «من شاور الرجال شاركها في عقولها».

ويقول: «أعقل الناس من جمع عقول الناس إلى عقله».

فالذي يستشير غيره يستخدم كلّ العقل، أما الذي يستبدُّ برأيه فهو يتصرّف بنصف العقل، لأن عقله ليس مختلطاً مع عقول الآخرين.

يقول ربّنا عزّ وجلّ وهو يصف أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (١).

ويأمر الله نبيّه وهو أكمل الناس عقلاً، قائلاً: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (٢).

وهكذا فلا يمكن أن يستغني أحد عن الاستشارة حتى وإن كان ممن وهبه الله ذكاءً خارقاً وفكراً وقّاداً، لأنّ من ازداد عقله ازدادت معرفته بأهمية الاستشارة. وإلّا فلابدّ من الشك في فهمه وعقله.

إن الأكثر انتباهاً والأقدر على سرعة اتخاذ القرار هو أحوج من غيره إلى الاستشارة. لأن سرعة اتخاذ القرار

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

تعني سرعة العطب أيضاً، تماماً كما أن السيارة التي تنطلق بسرعة كبيرة تكون أحوج إلى كوابح قوية، لأنها أكثر عرضة للأخطار من غيرها.

يقول المثل المعروف: «غلطة الشاطِر بألف». فكلّما كان الفردُ أكثر ذكاءً فهو بحاجة إلى استشارة أكبر لأن في المشورة على الأقل ما في الكوابح في السيارة من القدرة على إيقاف الفرد عن الانطلاق بشكل خاطئ.

❊ ❊ ❊

إن حالة الاستشارة يجب أن تبدأ من داخل الأسرة، فمن الضروري أن يستشير الرجل أهله وأولاده وأن يتعلم الإخوة أن يستشير بعضهم بعضاً، وأن يتعاونوا فيما بينهم.

فالعوائل التي تعتمد الاستشارة كواحد من تقاليدها تنجح داخلياً وخارجياً، بينما العوائل التي لا تعرف إلّا الأوامر والنواهي تصدرُ من الكبار إلى الصغار، ومن

الأقوياء إلى الضعفاء فهي تعيش دائماً حالة من التخلّف.

* * *

ثم إن الاستشارة يجب أن تفرز قوانين، ومؤسسات، ولجاناً.

فإذا حدث ذلك فإن القرارات التي تصدر تكون أقرب إلى الصواب والنجاح، وأبعد من الخطأ والفشل.

إن تاريخ الناجحين يثبت أنهم كانوا أكثر الناس استشارة في كل شيء، وفي جميع الظروف والأحوال.

فالمشاورة حالة حضارية تتطلبها الفطرة الإنسانية، وتؤكد عليها الديانات السماوية، وهي مدعاة للتطوّر والرقي في كل شؤون الحياة.

## العمل بين الكمِّ والكيف

هل المطلوب أن نهتم «بالكيفيّة» ونُهمِل «الكميّة»؟!

أم لابدّ من العكس، أي أن نهتم بالكمية مع قطع النظر عن الكيفيّة؟

وهل الاهتمام بالتطوير أمر ضروري في جميع المجالات؟ أم يكفي الاكتفاء بواقع الحال؟

قبل الإجابة على ذلك لابدّ من التأكيد على ضرورة وجود منهج يسير عليه الفرد والمجتمع في مجال إنجاز الأعمال، إذ بدون اعتماد المنهجية في العمل لا يمكن لأحد أن يحقّق شيئاً، مهما كان عملُهُ بسيطاً.

والحديث عن الكمّ والكيف إنما هو حديثٌ عن المنهج الذي يتم اعتماده في هذا الأمر في مختلف مجالات الحياة.

والسؤال الأساسي هو: إذا وقع التناقض بين الاهتمام «بالكمّ» و«الكيف» فبأيهما يجب أن نضحّي، هل نضحّي «بالكمّ» لمصلحة «الكيف» أم «بالكيف» لمصلحة «الكمّ»؟

لنفترض أن أحدنا يمتلك أرضاً صالحة للزرع، فهل عليه الإكثار من غرس الأشجار فيها؟

أم الأفضل أن يختار أشجاراً نموذجيّةً مما تعطي ثماراً كثيرة؟

أو لنفترض أن أحدنا كان قادراً على الإنتاج الأدبي، فهل يهتم بزيادة المؤلّفات؟ أم يهتم بنوعيّة التأليف؟

ولو كان هنالك شخصٌ لم يؤلف في حياته إلّا كتاباً

واحداً ولكنّه كتاب ممتاز، فهل هو أفضل من ذلك الذي ترك مجموعة من المؤلفات في جميع الحقول؟

وهل الشاعر الذي لم يترك إلّا قصيدة واحدة هو أفضل، أم ذلك الذي ترك مجموعة كبيرة من دواوين الشعر؟

وفي مفترق الطرق أيّ المنهجين نعتمد؟

يبدو أن المطلوب ليس هذا ولا ذاك بالمطلق، إذ ليس ذلك صحيحاً ولا نافعاً، فالذي يهتم بالتطوير، أي بالكيف، لا يجوز له أن يلغي الكم بشكل دائم.

تماماً كما أن من يهتم بالكميّة لا يجوز له أن يهمل الكيفيّة، فمادام أن الحياة قائمة على التنافس فلابدّ من الاستجابة للطلب، لأن التنافس قائم على الأمرين معاً. ويمكن القول أن الصيغة المُثلى هي أن يكون الإنتاج بكيفيّة ممتازة وكميّة كبيرة.

فلو استطعنا أن نُنتج عشرة آلاف سيارة بكيفية جيدة فهذا أفضل من أن ننتج نفس الكميّة بكيفية رديئة، أو ننتج ألف سيارة بكيفية عالية جداً. فالجمع بين تطوير العمل وزيادة الإنتاج أمر ممتاز. وهو الذي يحاول الوصول إليه جميع أصحاب الصناعات في جميع الدول.

ولو افترضنا وقوع تناقض بين «الكمّ» و«الكيف» فلابدّ أن نحسب حساب الظروف التي نحن فيها، فربما نحتاج إلى زيادة العدد أكثر مما نحتاج إلى التطوير، وقد يكون العكس، فمثلاً لو كان هنالك ألف شخص فقير يحتاج كل واحد منهم إلى قوت يومه. وكان عند أحدنا ألف دينار، فهل الأفضل أن يعطيها جميعاً لواحدٍ منهم ويُغنيه في حياته، أم يُقسمها على الجميع حتى لا يموت أحدٌ منهم من الجوع؟

لا شك أن «الكمّ» هنا هو المطلوب وليس «الكيف».

ولكن لو كنّا نعمل في سوق يكثر فيه التنافس، فإذا لم نقدّم أفضل ما عندنا فسوف نخسر طلّاب بضاعتنا، وهنا لابدّ من الاهتمام بالكيف ولو على حساب الكمّ.

ثمّ لابدّ أن نعرف أين الخلل في عملنا؟

ففي الشعوب المتخلّفة ربّما ليس الخلل في الكمية بمقدار ما هو في رداءة الإنتاج.

إنك تجد اليوم أن جميع الدول تُنتج سيارات مثلاً، فلماذا يبحث الناس عن منتجات المصانع الكبرى للسيارات؟

لأن الخلل عند الشعوب المتخلفة في نوعية منتوجاتها، وليس في كميّتها.

من هنا فإن على هذه الشعوب الاهتمام بالكيفية والتطوير أكثر من الاهتمام بالكميّة.

لقد غفلت هذه الشعوب عن التطوير فترة طويلة من

الزمن، وجلبت لها هذه الغفلة التخلّف في ميادين الصناعة والتجارة وغير ذلك، فما أحوجها إلى وصيّة رسول الله التي أوصى بها الإمام علي عليه السلام حيث قال: «يا علي، إذا رأيت أنّ الناس يشتغلون بكثرة العمل، فاشتغل أنت بجودة العمل»[١].

فبالجودة يستطيع كل شعب أن يلحق بالركب، ويصنع الأمجاد ويطور حياته.

إن الناس في عالم المنافسة يهتمون بالنوعية، وإن كانت بفارقٍ بسيط.

ولو أنّ أمة من الأمم اهتمت بالتطوير الدائم في إنتاجها فإنها تستطيع أن تكسب قصب السبق في أعمالها.

ولعلّ من الممكن أن نهتم بالكم، ولكن ليس على حساب الكيف بأن نهتم بالتطوير الدائم للمنتجات والإنجازات ولو بشكل ضئيل، لا القفزات الكبرى فيها،

---

(١) بحار الأنوار ج٧٧، ص٨٨.

وذلك على الطريقة اليابانية، حيث أن شعب اليابان - مع أنه لم يخترع أي شيء من المنتجات الصناعية، فلا السيارة هي اختراع ياباني، ولا الطيارة، ولا القطار، ولا التلفزيون، ولا الفيديو، ولا أي شيء من هذه المنتجات ــ ولكنه شعب متقدّم، لأن اليابانيين يُضيفون شيئاً من التطوير إلى اختراعات الآخرين.

فهم طوّروا السيارة، من مركبة ضخمة تصرف الكثير من الوقود، إلى سيارة صغيرة تصرف القليل منه.

فاليابانيون يضيفون إلى مخترعات الآخرين شيئاً من التغيير ومسحة من ذوقهم الرفيع.. وأساساً يمكن القول أنه لا وجود لشيء اسمه الإبداع المطلق. فالله عزّ وجلّ، هو وحده بديع السموات والأرض أما البشر، فقد أعطاهم ربّنا القدرة على التطوير فقط، مثلاً ليس البشر هم الذين أبدعوا «الأرض» لكنهم قادرون على تحسين

التربة، وتطوير الزراعة، وكل اختراعات البشر هي استنساخ لما صنعه الباري عزّ وجلّ.

فالبشر لم يبدعوا الطائرة إبداعاً، وإنما قلّدوا الطيور في صناعة الطيران، لكنهم استطاعوا أن يطوّروا ذلك بمرور الزمن.

وعلى كل حال فإن من يملك القدرة على الإنتاج فلابدّ أن يفكر في نفس الوقت فيَ التطوير، ولو بمقدار بسيط جداً.

لقد جاء في الحديث المروي عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنه قال: «من اعتدل يوماه فهو مغبون، ومن كانت الدنيا همته اشترت مسرته عند فراقها، ومن كان غده شرّ يوميه فمحروم، ومن لم يبالي ما رزئ من آخرته إذا سلمت له دنياه فهو هالك، ومن لم يتعاهد النقص من نفسه غلب عليه الهوى، ومن كان في نقص فالموت خير له»[1].

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٨، ص١٨١، ح٣٤.

فالمهم أن تكون لنا زيادة ولو بمقدار قليل في كل يوم.

ومن هنا فلابدّ من وضع ميزان للزيادة والنقصان. فالكم والكيف مطلوبان معاً ولا يمكن إلغاء أحدهما لحساب الآخر. إلّا أننا يجب أن نعرف أيهما يجب الزيادة فيه في هذا الظرف أو ذاك.

ولابدّ أن يكون في كل مؤسسة قسم خاص للتطوير، وأن يكون ميزانية التطوير بنسبة ١٥٪ على الأقل من ميزانية الإنتاج. وبذلك نحافظ على الكميّة ونستفيد من الكيفيّة أيضاً.



# الفهرس

